أعلام الفكر الاجتماعى

والأنثربولوجي الغربي المعاصر

تأليف

د. محمود أبو زيد



دار غريب
للطباعة والنشر والتوزيع
القاهرة

الجزء الثانى
G - N

أعلام الفكر الاجتماعي
والأنثربولوجي الغربي المعاصر

أعلام الفكر الاجتماعي والأنثربولوچى الغربي المعاصر

الدكتور/ محمود أبو زيد

(الجزء الثانى)

G - N

دار غريب
للطباعة والنشر والتوزيع
القاهرة

الكتاب : أعلام الفكر الاجتماعي والأنثربولوجي الغربي المعاصر «جـ٢»
المؤلف : د. محمود أبو زيد
رقم الإيداع : ١٤٧٩٤
تاريخ النشر : ٢٠٠٧
الترقيم الدولي : I. S. B. N. 977 - 215 - 372 - 6

الناشر : دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع
شركة ذات مسئولية محدودة
الإدارة والمطابع : ١٢ شارع نوبار لاظوغلي (القاهرة)
ت : ٧٩٤٢٠٧٩ فاكس ١٩٥٤٣٢٤
التوزيع : دار غريب ٣،١ شارع كامل صدقي الفجالة – القاهرة
ت ٥٩٠٢١٠٧ – ٥٩١٧٩٥٩
إدارة التسويق والمعرض الدائم { ١٢٨ شارع مصطفى النحاس مدينة نصر – الدور الأول
ت ٢٧٣٨١٤٢ – ٢٧٣٨١٤٣
البريد الإلكتروني : DarGhareeb@hotmail.com

محتويات الكتاب

تصدير

هذا هو الجزء الثانى من «أعلام الفكر الاجتماعى والأنثربولوجى الغربى المعاصر» الذى نحاول فيه الاقتراب ممن نعتقد أنه من الضرورى على الباحثين فى علم الاجتماع وفى الأنثربولوجيا أن يتعرفوا على ما يشتمل عليه من أعلام كان – ولايزال– لهم دورهم المؤثر فى مسيرة وتطور هذين النسقين العلميين، وبذلك يتكامل هذا الجزء مع ما سبق أن عرضنا له فى الجزء الأول من الكتاب وصولا إلى الجزء الثالث الذى آثرنا أن تكتمل به خطة الكتاب ككل بتناولنا لما تبقى – بعد هذا الجزء الثانى – من أعلام وأسماء.

ولقد سبق أن قلنا فى تصديرنا للجزء الأول أنه ليس المقصود بهذا الكتاب أن يكون مجرد وصف أو تأريخ للأعلام الذين نعرض لهم بقدر ما هو (الكتاب) محاولة لمناقشة ما نعتقد أنه أهم ما انطوت عليه كتاباتهم من مبادئ وأفكار ونظريات، ولست أظن أن شيئا من هذا المنهج قد طرأ عليه ما يغيره أو يحيد به عما كان وسرنا عليه من قبل سواء من حيث اختيارنا للأعلام ذاتهم أو من حيث تحديدنا للإطار الزمنى الذى ينتمى إليه هؤلاء الأعلام أو حتى الإطار المكانى باعتبار أن القصد هو أن يدور الكتاب حول الفكر الاجتماعى والأنثربولوجى الغربى ومفكرى هذين العلمين بالذات وعلى وجه التحديد.

ولكن من المهم مع تلك الإشارة إلى أن هذا الجزء الثانى قد سعى – باعتباره واسطة العقد – إلى أن يحقق قدرًا من التوازن الكمى بين الأجزاء الثلاثة التى أرجو أن يحتويها الكتاب ككل. وهذه فى الواقع مسألة من الصعوبة بمكان نظرا لأنها أملت الخضوع لكثير من الضرورات كما دفعت إلى الكثير أيضا من البدائل والأولويات. فلم يكن من المقبول أبدا أن يجيء كتاب الأعلام فى جزء واحد فحسب نظرا للعدد

الضخم من الأعلام والمفكرين مما يجعل أى كتاب ينوء بحمله حجما وانتاجا وإخراجا، الأمر الذى ضاعف فى الحقيقة من مشكلة تخير الأعلام من نكتُب عنه ومن نُسقط من حسابنا حتى تتوازن الأجزاء بقدر الإمكان. وإن كان هذا لا يعنى التقليل من أهمية الذين لم نعرض لهم أو إنكارا لعطائهم ودورهم، ودون أن يكون ذلك أيضا على حساب الغاية النهائية التى يسعى الكتاب إلى تحقيقها وهى إلقاء المزيد من الضوء على جانب من أهم جوانب الفكر الغربى المعاصر الذى يهتم بدراسة وفهم المجتمع والثقافة كيما نكون أقدر على فهم المجتمع الكبير من حولنا حتى نكون أقدر على التعامل مع مشكلات المجتمع ومشكلات الثقافة فى عصر يتسارع إيقاع تغير كل ما فيه.

والله ولى التوفيق

محمود أبو زيد

مصر الجديدة

في مايو ٢٠٠٦

G

جادامر، هانز جورج (١٩٠٠ - GADAMER, HANS GEORG

يعتبر واحدا من أشهر الفلاسفة والمفكرين الذين يمارسون نفوذًا وتأثيرًا بالغين على كل الفكر الأوربى هذه الأيام فهو بلا شك رائد مدرسة التأويل المعاصر Hermeneutics (الهرمنطيقا) متأثرًا فى اتجاهاته تأثرا كبيرا بالنزعة الفلسفية الفينومينولوجية Phenomenology التى يمثلها مارتن هيدجر Heidégger (١٨٨٩ - ١٩٧٦) الذى ارتبط به ارتباطا وثيقا كان له أثره فى تكوينه الشخصى والفكرى على السواء.

ولد جادامر فى عام ١٩٠٠ بألمانيا وتلقى تعليمه فى جامعة ميونيخ Munich وجامعة ماربورج Marburg حيث تتلمذ على أيدى مارتن هيدجر الذى أصبح صديقا مقربا له، ولهذا فلم يكن غريبا أن شغل منصب أستاذ الفلسفة فى ماربورج وأيضا فى ليبزيج Leipzig وفرانكفورت Frankfurt وهايدلبرج Heidelberg وكلها من كبريات الجامعات الألمانية.

ولقد اهتم جادامر منذ وقت مبكر بقضية التحليل التأويلى التفسيرى ومشكلاته ولذا ركز كل جهده فى عرض ومناقشة الأفكار حول التأويلية التى كان يعتبرها عملية خلاقة وليست عملية سلبية إذ أنها تقوم فى قلب التقاليد والأعراف والعقائد وكل ميراث الفرد الذى يقوم بعملية التأويل حيث أن الهرمنطيقا تهتم أساسا بشكل ومضمون موضوع التفسير سواء أكان فعلا أو نصا أو موقفا اجتماعيا.

ويعتبر كتابه (الحقيقة والمنهج) Wahrheit and Methode الذى صدر فى عام ١٩٦٠ (ترجم فى ١٩٧٥ إلى الانجليزية تحت عنوان Truth and Method) من وجهة نظر كثير من النقاد والباحثين أهم كتاباته وإسهامه الرئيسى الذى سعى فيه إلى إبراز موقفه وأفكاره عن الهرمنطيقا (نظرية التأويل / التفسير).

وهناك مسلمة أساسية تظهر بوضوح عند جادامر فهو كفيلسوف هرمنطيقى يرى أن هناك علاقة جذرية ومتداخلة فى أى موقف من المواقف (النص) بين الكل والأجزاء التى يتكون منها هذا الكل ومن ثم فيصير من الصعب جدا فهم أو معرفة أى جانب دون معرفة الجوانب الأخرى.

وفى ضوء هذه المسلمة يسير جادامر فى كتاب «الحقيقة والمنهج» خطوة أبعد. فالهرمنطيقا تمثل عنده نسقا فكريا يضمن التوصل (فى رأيه) إلى الحقيقة. وهذا معناه أن الحقيقة تتلازم مع الوجود بوصفها جزءًا منه على ما ذهبت إليه الفينومينولوجيا الوجودية وهو الأمر الذى اعتبره غير صحيح تماما وأنه يمثل أحد الأخطاء الأساسية فى الفينومينولوجيا الوجودية التى تحتاج إلى مراجعة وإعادة نظر. وعلى الرغم من أنه قد سعى إلى ذلك من خلال عملية جدلية طويلة فإن معالجته ظلت بعد ذلك معالجة ناقصة لأنها فشلت فى اعطاء تفسير مقنع للهرمنطيقا.

وبالرغم من ذلك فهناك بعض الأمور اللافتة التى قد تساعد فى إلقاء مزيد من الضوء على فكر جادامر أهمها ما يثار بصدد قضية الفهم ذاتها التى تعتبر قضية محورية فى تفكيره. فالفهم عنده ليس مجرد أمر ذاتى يتسم بالتلقائية أو الآلية والميكانيكية ولكنه ينطوى على مستويات عدة يتداخل فيها الماضى والحاضر بصفة دائمة وهو بهذه الطريقة يختلف تماما عن تفسير الوقائع التى تنتمى إلى عالم الطبيعة ذلك أنه يتطلب إقامة نوع من الحوار والغوص أو الولوج إلى الفعل ذاته أو النص للتعرف عليه من الداخل حتى لو كان ذلك لا يتم إلا عبر التنقل خلال الأزمنة المختلفة.

وليس من شك فى أن الفهم على هذا النحو يمثل رحلة طويلة وشاقة وربما كان إدراكه لهذه الوضعية هو السبب فى القول بمفهومه عن عمومية الهرمنطيقا Universality of Hermeneutics الذى يعتبر بدوره مفهوما محوريا فى نظريته.

ولكن هذا المفهوم كان سببا فى قيام نقاش طويل وبصفة خاصة بينه وبين يورجن هابرماس Habermas نتج عنه إثارة العديد من القضايا التى طالما تحدث عنها فلاسفة التنوير والتى كانت تتردد فى كل مناقشاتهم التى غالبا ما كانت تدور حول الأيديولوجيا. وعلى أية حال فقد كان ثمة خلاف فارق بين موقفيهما. فجادامر - من ناحية - يوحد الهرمنطيقا بكل انعكاسات التراث بكل ما يتضمنه من تقاليد ومثل وقيم وأخلاقيات.. إلخ. ولهذا فقد اعتبر هذا التراث بمثابة المنبع (المرجعية) الضرورى اللازم لكل فهم ومعرفة إنسانية. على حين - وهذا من الناحية الثانية - عارض هابرماس ذلك بشدة تأسيسا على اعتقاده بأنه يطرأ على التراث دائما الكثير من التغيرات والتحريفات والتشويهات التى لا يشك أحد فى أنها تباعد بينه وبين أن يكون مرشدًا كافيا للفهم وللمعرفة. وهو خلاف لم يستطع جادامر أن يقطع فيه برأى على أية حال.

★ ★ ★

عالم الاجتماع الأمريكى هارولد جارفينكل هو مؤسس المنهجية الإثنية (المنهجية الجماعية) التى تعرف اصطلاحا بالأثنوميثودولوجيا أحد أحدث المناهج (الطرائق) التى تلقى اليوم رواجا كبيرا بين أجيال المفكرين الأمريكان الشبان.

ولد جارفينكل فى نيوجرسى فى عام ١٩١٧ وتتملذ على أيدى تالكوت بارسونز Parsons الذى أفلح فى أن يثير فيه اهتماما زائدا بتحليل عالم الحياة اليومية وما يجرى فيها من وسائل وأطر اتصالية ولهذا كانت دراسته لنيل درجة الدكتوراه التى حصل عليها عام ١٩٥٢ عن «إدراك الآخر» .

فى عام ١٩٦٧ ظهر كتابه «دراسات فى الأثنوميثودولجيا Studies in Ethnomethodology الذى سعى فيه إلى توضيح المجال المعرفى الذى تهتم به الأثنية المنهجية. وهو كتاب استقبلته الدوائر العلمية والأكاديمية بترحاب شديد وإن عاب عليه البعض تفكك أسلوبه وغموضه فى أماكن كثيرة ربما بسبب حدة الاتجاه نفسه كاتجاه يعكس منهجية جديدة فى علم الاجتماع.

ولعل أول ملاحظة يمكن ملاحظتها فى أعمال جارفينكل أنها تربط ربطا قويا بينه وبين الأفكار التى قال بها فيتجنشتين Wittgenstein (١٨٨٩ - ١٩٥١) وأوستن (ح. ل. أوستن) Austin الذى يعتبر من ألمع علماء المدرسة التحليلية التى أطلق عليها مدرسة لغة الحياة اليومية أو مدرسة اكسفورد اللغوية (١٩١١ - ١٩٦٠) وعالم الاجتماع النمساوى الفريد شوتز Schutz (١٨٩٩ - ١٩٥٩) الذى يعتبر من أكبر ممثلى اتجاه الفينوميتولوجيا الوجودية. وبوجه عام تعنى الاثنوميثودولوجيا الدراسة التى توضح كيف يفهم الناس ما يقوله وما يفعله الآخرون أثناء عمليات التفاعل الاجتماعى اليومية كما تهتم بالمنهجيات الجماعية (الشعبية) التي يستخدمها البشر فى عمليات التبادل الاتصالى ذات الدلالة التى تتم بينهم وبين بعضهم. وبمعنى آخر يمكن القول إن الأثنوميثودولوجيا تهدف أساسا إلى الكشف عن الأسس الاجتماعية للمعرفة الحياتية ومدى وكيفية استخدام كفاءتنا الاجتماعية حيث يبدو مفهوم الاثنوميثودولوجيا مفهوما دالا بذاته لذا يشير المقطع الأول (اثنو) إلى مخزون الفهم

أو المعرفة البدهية العامة المتاحة لأعضاء المجتمع بينما يشير المقطع الثانى (ميثودولوجى) إلى المناهج أو الاستراتيجيات التى يستخدمها الأفراد فى أطر مختلفة لكى يجعلوا من أفعالهم أفعالا قابلة للفهم من قبل الآخرين. ولهذا فإن تحليل اللغة من الواضح أنه يمثل موقعا مركزيا فى هذا الاتجاه.

ولقد ساعدت الظروف الاجتماعية السائدة فى نهايات الخمسينيات تقريبا من القرن الماضى على ظهور ومن ثم بلورة لا المفهوم فحسب ولكن الاتجاه بأكمله وذلك نتيجة بالدرجة الأولى لتراجع الوظيفية Functionalism كنظرية سائدة وموجهة لعلم الاجتماع الأمريكي وهى بوجه عام عبارة عن نوع من المزاوجة بين بعض الاتجاهات الفلسفية كالفينومينولوجيا من ناحية وفلسفة فتجنشتين وفلسفة اللغة من ناحية ثانية.

وعلى أية حال فإن الاثنوميثودولوجيا تمثل جانبا هاما من النقد الراديكالى لعلم الاجتماع التقليدى عن طريق سعيها المتصل لتوضيح المعانى وتجلية المفاهيم، والأطر التى تتحرك فيها الكلمات والألفاظ والخطابات بين الأفراد الفاعلين. وذلك على الرغم مما يشوب بعض مفاهيمها من غموض وبخاصة ما تعلق منها بفكرة الاشارية indexicality التى يقصد بها أن المعرفة تكتسب أحيانا بالإشارة إلى كلمات أخرى وإلى الأطر التى تنطق فيها الكلمات وفكرة الانعكاسية reflexivity التى تشير إلى أن أى فهم للفظ أو الموقف أو النص إنما هو نتاج لعملية تخاطبية أى أن الفهم إنما يتولد أو يتخلق من خلال الحديث ذاته وما قد يكون هناك من معان ودلالات للفظ أو النص.

★ ★ ★

يقف عالم الانثربولوجيا الأمريكى كليفورد جيرتز فى مقدمة العلماء الذين اشتهروا بدراساتهم لقضايا الرمزية ومشكلات التغير الثقافى، والذين اسهمت بحوثهم اسهاما كبيرا فى ابراز أهمية البعد الثقافى فى التحليل الدينى والعقائدى حيث ركز بصفة خاصة على الملامح والأبعاد الثقافية فى الدين وصلتها بالبناء الاجتماعى والنفسى خاصة وهو يحاول العثور على إجابة شافية لتساؤل جوهرى مؤداه إلى أى مدى يكون اعتبار الدين نتاجا للبناء الاجتماعى وإلى أى حد يمكن أيضا الركون إلى صدق هذه المقولة.

ولقد ولد جيرتز فى الثالث والعشرين من شهر أغسطس عام ١٩٢٦ وحصل على تعليمه فى كلية أنتيوش Antioch ونال درجة الدكتوراه من جامعة هارفارد التى التحق بها خلال العام ٥٦ / ٥٧ ليصبح بعد ذلك زميلا فى مركز الدراسات المتقدمة للعلوم السلوكية فى بالتو آلتو Pallto Alto (٥٨ / ٥٩) ثم استاذا مساعدا للأنثربولوجيا فى جامعة كاليفورنيا (٥٨ / ٦٠) ليعود بعدها إلى جامعة شيكاغو عام ١٩٦٢ حيث أصبح أستاذا للانثربولوجيا عام ١٩٦٤ ثم أستاذا بجامعة ميتشجان وبرينستون.

ومنذ البدايات الأولى لطريقه الأكاديمى تحددت نظرته إلي الدين باعتباره نسقا ثقافيا. ولكنه انطلق مع ذلك من اقتناع أساسى مؤداه أن حالة الدراسات والبحوث التى أجراها الأنثربولوجيون على الدين تشكو غير قليل من السطحية والضحالة الأمر الذى يصدق على ما تم منها طوال سنوات ما قبل الحرب العالمية الثانية أو تلك التى أجريت منذ اندلاعها. فكلها لم تضف - فى رأيه - أية اضافات نظرية لها قيمتها وذلك لأنها فى الوقت الذى استلهمت كتابات مفكرين كبار مثل دوركايم وماكس فيبر وفرويد ومالينوفسكى لم يخطر ببالها أن ثمة علاقات متشعبة بالفلسفة والتاريخ والأدب والقانون وتجاهلت بذلك أحد الأبعاد بالغة الأهمية فى تحليل الدين وهو البعد الثقافى.

وينبثق عن هذا الموقف المبدئى قناعته المماثلة التى يكتمل بها موقفه النظرى والعلمى معا. ففى رأي جيرتز أن استقصاء الدور الاجتماعى والسيكولوجى للدين

ليس مجرد محاولة لإيجاد الارتباطات بين بعض الأفعال الشعائرية وبعض الروابط الاجتماعية على الرغم من أهمية ذلك وأن هذه الارتباطات موجودة بالفعل، وإنما الأهم من هذا هو معرفة كيف أن التصورات تصيغ أفعال الإنسان وتكون ادراكهم لما هو معقول ولما هو عملى وتطبيقى وانسانى وأخلاقى، وبالتالى فإن السؤال الحيوى لابد أن يكون عن تأثير هذه التصورات وهو سؤال يمثل فى الحقيقة قضية هامة وخطيرة فى علم الاجتماع المقارن وسيكولوجية الأديان.

وهناك خاصيتان أساسيتان يرى جيرتز أن الدراسة الانثربولوجية للدين لابد أن ننتبه إليهما الأولى أهمية تحليل نسق المعانى الذى تنطوى عليه الرموز الدينية والثانية علاقة هذه الأنساق ببناءات العمليات الاجتماعية والسيكولوجية بالرغم من أن معظم الاهتمام المعاصر مازال ينصب على الناحية الثانية دون الاهتمام كثيرا بالناحية الأولى التى يرى أنها مازالت فى حاجة إلى مزيد من الاهتمام والتعمق.

وعلى العموم فقد قام جيرتز بعدد من الدراسات الاثنوجرافية فى كثير من البقاع منها اندونيسيا ومراكش وخاصة جاوة هذا بالاضافة إلى العديد من الدراسات والبحوث التى درات حول الأديان فى هذه المناطق وبخاصة حول تفسير ما يوجد فيها من ثقافات ورموز وأساطير بخلاف عدد كبير من المقالات والكتب والمؤلفات التى قدمها بالاشتراك مع آخرين.

وعموما فإن من بين أهم مؤلفاته «الدين فى جاوة» The Religion of Java (١٩٦٠) و«مجتمعات قديمة ودول جديدة» Old Societies and New States (١٩٦٣) و«تفسير الثقافات» The Interperation of Cultures (١٩٧٣) و«الأسطورة والرمز والثقافة» Myth, Symbol and Culture (١٩٧٤) و«مدخل (اقتراب) أنثربولوجى لدراسة الدين An Anthropological Approach to the Stdy of Religion (١٩٧٦).

★ ★ ★

ترجع شهرة عالم الاجتماع الألمانى تيوردور يوليوس جايجر إلى أنه أول استاذ لعلم الاجتماع فى الدانيمارك وإلى دراساته وبحوثه فى التدرج والحراك الاجتماعيين وهى الدراسات والبحوث التى مارست تأثيرًا متزايدا فى معظم الباحثين الدانيماركيين وبخاصة على ما يظهر فى دراسته للسكان فى آرهوز Arhus بالدانيمارك والتى نشرت تحت عنوان «التغيرات الاجتماعية فى مدينة دانيماركية متوسطة الحجم Social Changes in a Medium-Sized Danish City فى عام ١٩٥١ وقبلما يموت بعام واحد أثناء قيامه برحلة بحرية وهو فى طريق عودته إلى أوروبا بعد زيارة لمدة عام كأستاذ زائر فى تورنتو.

ولد جايجر فى ميونيخ عام ١٨٩١ وبعد أن انتهى من تأدية الخدمة العسكرية فى الحرب العالمية الأولى عاد إلى ميونيخ حيث نال درجة الدكتوراة فى القانون ليبدأ طريقه الذى كان مليئا بالأشواك بسبب أفكاره التى ضمتها كتاباته ومؤلفاته التى كانت لفترة طويلة متأثرة بالفكر الماركسى الذى مكنه على أية حال من الحصول على كرسى الأستاذية فى معهد برونشفيك التكنولوجى من ١٩٢٨ إلى ١٩٣٣ . وإن كان قد هجر هذا الفكر على ما تبدى فى مؤلفه الرئيسى «المجتمع الطبقى فى بوتقة الانصهار» Class Society in the Melting Pot الذى ظهر فى ١٩٤٨ . ولكن بعد صعود النازيين إلى الحكم اضطر للهرب إلى كوبنهاجن حيث شغل عدة مناصب فى مؤسسة روكفلر وفى معهد الدراسات التاريخية والاقتصادية وفى جامعة أرهوز. ثم هرب إلى ستوكهولم فى ١٩٤٣ حيث عمل استاذًا لفلسفة القانون فى مدرسة أوبسالا Uppsala حيث ركزت دراساته على فلسفة القانون والايديولوجيا والقانون. وعندما انتهت الحرب عاد إلى آرهوز فى ١٩٤٥ حيث قام بتأسيس إدارة المعهد الاسكندنافى للبحث الاجتماعى.

وقد قام جايجر بنشر عدد كبير من الكتب والمؤلفات فى علم اجتماع المجتمع كما ظهر اهتمامه بسوسيولوجيا النظام الاجتماعى فنشر «دراسات أولية فى علم

الاجتماع القانونى» فى عام ١٩٤٧ ومن بعده نشر «الايديولوجيا والحقيقة» فى ١٩٥٣ ثم «الديموقراطية بلا عقائد جامدة» فى عام ١٩٦٠ وهو كتاب له أهمية خاصة إذ يبرز موقفه ورؤيته فى المجتمع ومدى تأثير الايديولوجيا عليه وإن كان قد اعتمد كثيرا على تجاربه الشخصية التى تكشف عن اتجاه غائي يصعب التقليل من أثره ونتائجه.

★ ★ ★

لعل واحدا من علماء الاجتماع لا يختلف اليوم كثيرا فى أن عالم الاجتماع البريطانى أنتونى جيدنز يحتل - بالرغم من كل ما قد يوجه إليه من انتقادات - مكانة متقدمة بين أشهر علماء الاجتماع المعاصرين، وفى أنه يعتبر من وجهة نظر الكثيرين ربما أبعدهم تأثيرا لا فى بريطانيا وحدها ولكن فى مختلف أنحاء العالم. وأيضا فى أن هذه المكانة لا ترجع فحسب إلى الكم الهائل من الكتب والمؤلفات والدراسات والمقالات التى دأب على تأليفها ونشرها فى المجلات العلمية منذ سبعينيات القرن الماضى على الأقل وإنما ربما لأن أحدا لم يسهم فى تطوير النظرية الاجتماعية مثلما أسهم هو ليس فقط عن طريق محاولته إعادة قراءتها قراءة جديدة ولم شتاتها وإعادة بنائها ولكن لأن أحدا منذ فترة طويلة لم يسبق إلى تقديم نظرية تتسم بطرافة الفكر وبجدة المنهج مثلما فعل وتجاوز بذلك العديد من الأفكار والمقولات التى باتت منذ زمان طويل أشبه بالمسلمات أو المقدسات التى لا يصح مناقشتها أو حتى الاقتراب منها. فما بالك انتقادها واعلان إفلاسها وربما هدمها فى أحيان كثيرة.

ولقد ولد أنتونى جيدنز فى الثامن عشر من شهر يناير عام ١٩٣٨ فى بريطانيا وتلقى تعليمه أولا فى جامعة هل Hull التى درس فيها علم الاجتماع وعلم النفس ونال منها درجته العلمية الأولى (١٩٥٩) ثم انتقل منها إلى مدرسة لندن للاقتصاد والعلوم السياسية حيث حصل على درجة الماجستير فى علم الاجتماع (١٩٦١) ثم حصل بعد ذلك على درجة الدكتوراه من جامعة كمبريدج (١٩٧٦) حيث أصبح زميلا فى كلية الملك King's College ثم أستاذا للاجتماع بجامعة كمبريدج التى ظل يعمل بها حتى الآن كأستاذ ورئيس لمركز البحوث الاجتماعية بها.

هذا الإعداد الذى يتصف بتعدد التخصصات والاهتمامات وبتنوع الروافد الرئيسية التى نهل منها فى الثقافة والمجتمع قديما وحديثا جعل انتونى جيدنز يتمتع بتكوين علمى متميز كما نجم عنه أن جاء انتاجه ضخما وهائلا بكل المعايير لدرجة أن وصفه البعض بالموسوعية التى استثارها حسه الاجتماعى الذى طالما قاد تفكيره

وخطواته سواء وهو يلتقط ويتخير موضوعاته وقضاياه أو عندما يشرع فى طرحها ومناقشتها. وقد قدم لنا أنتونى جيدنز حتى الآن حوالى ٤٠ كتابا فيما بينها على الأقل عشرة كتب رئيسية عكست فى مجموعها ما يطلق عليها سوسيولوجيا أنتونى جيدنز ودار بعضها (وربما هى الأكثر أهمية) حول نظريته المعروفة باسم نظرية «الصياغة البنائية» أو «البنينة» كما يطلق عليها البعض Structuration Theory وإن كان قد كتب إلى جانب ذلك ما يزيد على مائتى مقال كثيرا ما يعود إلى بعضها ليستكمل موضوعا من الموضوعات أو نقطة من النقاط التى يتناولها فى كتبه ويكون قد عرض لها فى مقال سابق من مقالاته.

وقد يكون من الصعب حقا فهم سوسيولوجيا جيدنز ومن باب أولى فهم نظريته والإحاطة بمنهجيتها ما لم نحط بمفهومه الذاتى لعلم الاجتماع طالما أن أحد الأهداف الرئيسية لنظريته هو إعادة الفهم السوسيولوجى لمفهوم البناء Structure بدلا من أن يظل أسيرا لثنائية الذات / الموضوع التى طالما دارت من حولها النظريات والاتجاهات الأخرى والتى أصبحت بالنسبة إليه مجرد نظريات واتجاهات كلاسيكية ينبغي تجاوزها. فعلم الاجتماع عنده عبارة عن حوار مفاهيمى ممتد حول طبيعة المجتمع الحديث وهو حوار يفترض وجود الوعى بمستوياته وبدرجاته المختلفة وبأنواعه المختلفة أيضا سواء أكان وعيا عمليا أو وعيا ذاتيا وسواء أكان وعيا ناضجا ومكتملا أو فى مرحلة من مراحل نموه واكتماله أو حتى مجرد تعبير عن لا وعى ولا شعور. ومن الواضح أنه يصير ضروريا فى كل هذا الإحاطة أيضا بالعديد من المفهومات وثيقة الصلة التى وإن كان بعضها قديما ومترددا فى تراث علم الاجتماع إلا أنه اكتسب أبعادا ومعانى أخرى وربما استخدامات أخرى كذلك فى نظريته مثل مفهوم تفكيك الصياغة البنائية Destructuration ومفهوم الصياغة البنائية Structuration نفسه الذى يقصد به كل عناصر الحياة الاجتماعية التى تجرى صياغتها من خلال الممارسات الاجتماعية التى تتم بشكل ماهر. ومن ثم تكون أشبه بالصياغة الأنطولوجية للحياة الاجتماعية بأكملها.

وبالنظر إلى هذا الفيض من الكتابات والمؤلفات لا يصح الاعتقاد بأن نظرية جيدنز قد عكسها واحد فحسب من هذه المؤلفات ولكن الأقرب إلى المنطق أن مراحلها وخطواتها قد تكاملت على امتداد بعضها التى استغرقت ولاشك عددا من

السنوات. وربما أمكن تحديد كتاباتها الأساسية من خلال الاشارة إلى عناوينها التى جاءت دالة على موضوعها إلى حد بعيد وهذه المؤلفات هى «الرأسمالية والنظرية الاجتماعية الحديثة» وهو مؤلفه الأول الذى صدر فى عام ١٩٧١ . و«السياسة وعلم الاجتماع فى فكر ماكس فيبر Weber ودور كايم Durkheim» الذى صدر فى العام نفسه ثم كتابه الهام «قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع» (١٩٧٦) و«دراسات فى النظرية السياسية والاجتماعية» (١٩٧٧) و «البناء الطبقى للمجتمعات المتقدمة» (١٩٧٩) وكذلك كتاب «مشكلات محورية فى النظرية الاجتماعية: الفعل والبناء والتناقض فى التحليل الاجتماعي» فى العام نفسه. وإن كانت الثمانينيات قد حفلت أيضا ببعض الكتب الرائدة فى مقدمتها «نقد معاصر للمادية التاريخية» (١٩٨١) وأعقبه كتابه المعنون «تكوين المجتمع: الخطوط العامة لنظرية الصياغة البنائية» (١٩٨٤). و«تأسيس المجتمع» (١٩٨٤) و «الدولة القومية والعنف» (١٩٨٥) و«مقدمة نقدية فى علم الاجتماع» (١٩٨٩) ثم انفتحت التسعينيات بكتابه «منتجات الحداثة» (١٩٩٠) و«الحداثة والهوية الذاتية» (١٩٩١)، و«الطريق الثالث» (١٩٩٨)، و«عالم منفلت: كيف تشكل العولمة حياتنا» (١٩٩٩)، ثم آخر كتبه «علم الاجتماع» الذى صدرت طبعته الرابعة منذ خمس سنوات (٢٠٠١).

كتاب «الرأسمالية والنظرية الاجتماعية الحديثة» Capitalism and Modern Social Theory من أهم الدراسات التى عرضت بالنقد والتحليل لأهم وأخطر النظريات التى كان لها تأثيرها فى علم الاجتماع كالوظيفية والبنائية والماركسية وحتى الفرويدية والبارسونزية وما بعد البنائية والحداثية وما بعد الحداثية وكان بذلك أشبه بمراجعة نقدية للتراث يمكن القول بأنها مثلت ركيزة لانطلاقه نحو تأسيس نظريته الخاصة.

ويعتبر كتابه «السياسة وعلم الاجتماع فى فكر ماكس فيبر ودوركايم» Politics and Sociology in the Thought of Max Weber and Durkheim امتدادا - بمعنى من المعانى - طبيعيا للكتاب السابق وإن كان قد ركز بصفة أساسية على ما تتسم به منهجية العلم من حالات انفصامية أو اغترابية بسبب جمود وضيق أطر التحليل الاجتماعي وعدم اتساق منطقها.

أما كتابه الثالث الذى يبدو للكثيرين وكأنه أكثر أهمية من سابقيه فهو كتاب «قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع» New Rules of Sociological Method فيدور موضوعه حول المنهج ويقدم صياغة جديدة لقضايا الفعل والبناء والتحول الاجتماعي كما يركز بصفة أساسية على طبيعة الفعل الاجتماعى وعلى دلالات تحليل الفعل بالنسبة لمنطق العلم الاجتماعى وهو كتاب من الواضح أنه يعيد إلى الأذهان كتاب دور كايم «قواعد المنهج فى علم الاجتماع» Les Re`gles de la Méthode Sociologique (١٩٢٧) والتأثير الذى مارسه على الملايين من الطلاب والعلماء والباحثين. فإذا كان كتاب دور كايم قد سعى إلى تحقيق التماسك المنهجى فى ضوء ما ارتآه من شروط وحتى تتحقق للعلم ذاتيته فإن كتاب جيدنز يسعى بدوره - رغم تغاير الوضعيات والظروف - إلى تقديم منهجية تقضى على حالة التشرذم التى بات العلم يعانيها وذلك فى ضوء معالجته النقدية للاتجاهات الأساسية والمدارس الفكرية التى شغلت نفسها بتفسير الفعل الاجتماعى وفهم المجتمع والسلوك البشرى عموما. فكانت نظريته فى الصياغة البنائية بما انطوت عليه من تصورات جديدة ومفاهيم جديدة ربما أحدث الحركات المعاصرة التى تستهدف أساسا إعادة صياغة العلم وإعادة بنائه من جديد.

وليس من شك فى أن كتاب «نقد معاصر للمادية التاريخية» A Con-temporary Critique of Historical Marerialism كان بدوره يهدف إلى الغاية ذاتها كنقد يسعى إلى إعادة صياغة النظرية الاجتماعية فى ضوء القراءة الجديدة لأفكار العلماء والكتاب السابقين وهى الغاية التى لم يحد عنها فى أى من كتبه ومقالاته. وهو ما ظهر كأوضح ما يكون فى كتابه الهام «مشكلات محورية فى النظرية الاجتماعية» Central Problems in Social Theory : Action, Structure and Contradiction in Social Theory . وهو كتاب يعتبر تطويرا للأفكار التى سبق أن تناولها فى كتابه قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع ومحاولة للرد علي الذين انتقدوا هذا الكتاب فى بعض ما ذهب إليه مما ألقى بضوء جديد على كتاب القواعد يجعله أشد تماسكا واقناعا بما يعكسه من نظرة نقدية تحليلة ثاقبة.

إن ما لا شك فيه هو أن انتونى جيدنز قد نجح فى أن يصيب العلم بهزة عنيفة كانت ضرورية كيما يستطيع مواصلة طريقه نحو فهم أعمق للمجتمع وللإنسان وما

كان هذا ليتحقق إلا بالمعالجة النقدية الواعية وإلا عن طريق ابتكار ونحت العديد من التصورات والمفهومات الجديدة لفهم عملية انتاج وإعادة انتاج المجتمع التى وإن بدت - حتى الآن - غريبة على كثير من الآذان إلا أنها سوف تلعب الدور نفسه الذى سبق لكتاب دور كايم الذى أشرت إليه أن قام به وبذا تتراكم المعرفة وفى الوقت نفسه يتجدد العلم كطريق لا طريق غيره نحو مزيد من الفهم والتقدم.

★ ★ ★

جيفورد، ادوارد وينسلو (١٨٨٧ - ١٩٥٩) GIFFORD, Edward (Winslow)

يعتبر عالم الانثربولوجيا الأمريكى إدوارد جيفورد أحد كبار علماء آثار ما قبل التاريخ المشهود لهم وواحدا من أهم الذين درسوا اثنوجرافية الثقافات الهندية فى الغرب الأمريكى فى كاليفورنيا وأسهموا إسهاما ضخما فى تطوير المتحف الأنثربولوجي التابع لجامعة كاليفورنيا وجامعة بيركلى Berkely بكثير من المجموعات. خاصة وأنه عمل أستاذا فى كاليفورنيا كوليج منذ عام ١٩٢٠ حيث أصبح استاذا للانثربولوجيا فى عام ١٩٥٤ وذلك بعد رحلة علمية وعملية طويلة شارك خلالها فى العديد من البعثات كما أصبح نائبا مساعدا لمدير أكاديمية كاليفورنيا للعلوم من عام ١٩٠٤ إلى ١٩١٢ ثم لفترة طويلة من ١٩١٢ إلى ١٩٥٦ رئيسا عن جدارة لإدارة المتحف الذى ارتبط به لفترة بلغت حوالى ٤٤ عاما كاملة.

والواقع أن المادة الاثنوجرافية الهائلة التى جمعها عن الهنود الأصليين أمدته بالدقائق والتفاصيل الدقيقة بشكل قل أن يوجد له مثيل لدرجة أن عملين اثنين على الأقل من أعماله مازالت تعتبر إلى اليوم من المراجع الأساسية فى هذا الميدان وهذان الكتابان هما كتاب «مصطلحات أنساق القرابة فى كاليفورنيا» (١٩٢٢) والكتاب الثانى عن الخصائص الطبيعية باسم California Anthropometry (١٩٢٦) والشيء نفسه بالنسبة لرحلته العلمية التي قام بها إلى جزر تونجا فى عام ١٩٢١ وكتب عنها «مجتمع التونجا» Tonga Society (١٩٢٩).

ويشكل تصنيفه وترتيبه للمادة التى كان يجمعها بنفسه وبواسطة غيره من الباحثين والتى تحتوى فى الأغلب على كم ضخم من المعلومات التفصيلية الخاصة بثقافتهم إنجازا أرشيفيا رائعا يحاول مثله الكثيرون من المتحفيين. وإن كان جانبا من الفضل فى تطوير مفهوم البدنة Lineage الذى يعتبر أحد المفهومات الرئيسية فى الانثربولوجيا الحديثة يرجع إليه. فقد اهتم بقضية الانتماء إلى البدنة والدور الذى تلعبه فى المجتمعات الزراعية والمجتمعات الرعوية على وجه الخصوص الأمر الذى يتطلب درجة عالية من تعاون عدد كبير من الأفراد الذين تربط القرابة بينهم فى مختلف الأعمال والنشاطات.

وفى وقت متأخر اهتم جيفورد بدراسة آثار ما قبل التاريخ وأضاف بذلك الكثير إلى التراث الخاص بجماعات شمال غرب المكسيك مما قاده إلى بعض التنقيبات فى كاليورنيا الجديدة New Caledonia وفيجى Figi وياب Yap وهو ما أتاح له الفرصة لكتابة مؤلفه «آثار وتنقيبات ما قبل التاريخ فى فيجى» (١٩٥١) وكذلك مشاركته لعالم الانثربولوجيا كروبر Kroeber فى كتاب (World Renewal) الذى صدر فى ١٩٤٩ ولقى رواجا منقطع النظير.

★ ★ ★

على الرغم من أن الاتجاه الغالب لدى كثير من العلماء أنهم لم يعودوا يهتمون كثيرا بقضية التقدم الأخلاقى، وصياغة نظرية أخلاقية، فإن عالم الاجتماع البريطانى الجنسية موريس جينزبرج يعتبر إلى حد بعيد استثناءً ملحوظا من ذلك. فقد مضى جينزبرج فى أماكن عديدة من كتاباته المتقدمة والمتأخرة ينتقد علماء الاجتماع الذين افترضوا وجود ارتباط ضمنى بين التباينات فى القوانين الأخلاقية وبين النسبية الأخلاقية، وكذلك الفلاسفة الذين نظروا إلى الأحكام الأخلاقية على أنها شىء واقعى ومن ثم فهى ليست صادقة أو كاذبة، ومن هنا فقد أخذ يركز فى دراساته على بحث وتحليل التغاير الأخلاقى فى ضوء التغايرات فى الشعور والتغايرات بين الأفكار الأخلاقية المجردة وتلك التى توجد فى واقع الحياة وفى قلب مجتمع بعينه.

ولقد ساق الأستاذ جينزبرج منظورا نقديا لمفهوم التطور Evolution فى علم الاجتماع، وهو مفهوم لا يتعلق بقضية التطور فى ذاتها فحسب، ولكن أيضا بالمسألة الأخلاقية بعامة وبخاصة قضية التقدم الأخلاقى فى ارتباطها بالسياسة. وهى قضية ولئن كانت قد شاركه فى حمل همومها هو بهاوس Hobehouse وحتى وستر مارك Westermark ، إلا أنه نجح فى بلورة موقفه الخاص الذى وصفه بوتومور بأنه ألقى بكثير من الضوء على المدخل التطورى نفسه وعلى طبيعة العلاقة بين علم الاجتماع والعلوم الأخرى وكان حريا بكل هذا أن يكون له أثره فى الفكر السوسيولوجى الغربى.

وهناك ثلاثة محاور رئيسية تبلورت من حولها مواقف جينزبرج النظرية والمنهجية. وأول هذه المحاور وهو فى الوقت نفسه أكثرها أهمية دراساته لأنماط الجماعات الاجتماعية وهو اهتمام برز لديه فى وقت مبكر نسبيا. أما المحور الثانى الذى لا يقل أهمية، فيتمثل فى فهمه الخاص لمفهوم الطبقة الاجتماعية ومفهوم الوعى الطبقى، وبالتالى كيفية تكونهما والمؤثرات التى تؤثر فى تشكيلهما. ومن الناحية الثالثة قضية التغير الاجتماعى والثقافى وهى قضية لا تنفصل عن تأكيده المستمر على ما للفلسفة والميتافيزيقا من أهمية، الأمر الذى يختلف كثيرا عما نجده

لدى بعض كبار الفلاسفة والمفكرين من أمثال أوجيست كونت Comte وحتى إميل دور كايم Durkheim نفسه. وأخيرا اهتمامه بأنماط وأشكال التعميمات التى يطرحها العلم وقضية القانون العلمى فى العلم الاجتماعى.

فى عام ١٩١٥ ظهرت الطبعة الأولى من كتاب جينزبرج «الثقافة المادية والنظم الاجتماعية لدى الشعوب البسيطة» The Material Culture and Social Institutions of Simpler Societies. وفى هذا الكتاب الذى أعيدت طباعته أكثر من مرة ونشرت له طبعة منقحة فى عام ١٩٣٠ ارتاد جينزبرج بالاشتراك مع هوبهاوس وهويلر Wheeler طبيعة العلاقات المتشابكة بين أشكال المجتمعات المختلفة وبين أنساق التكنولوجيا وآلياتها.

وعلى الرغم من أن جينزبرج قد لجأ فى هذا الكتاب إلى استخدام المنهج المقارن الذى استطاع توظيفه بنجاح فإن دراسته للمجتمعات البسيطة لم تستطع مع ذلك أن تقدم تفسيرا كافيا لطبيعة هذه العلاقات وإن كانت قد أوضحت الكثير من جوانب العلاقة بين التغاير الاجتماعى وبين أشكال السلطة السياسية المستقرة وهى ناحية تفتقر إليها مثل هذه المجتمعات.

ولقد لعب مفهوم الطبقة Class والوعى الطبقى Class Consciousness دورًا هاما فى فكر موريس جينزبرج، حيث ارتبطا بتصوره لنشاط المجتمعات والجماعات الإنسانية وما يطرأ عليها من مظاهر التطور أو حتى التغيير. وربما كان كتابه «سيكولوجية المجتمع» The Psychology of Sciety الذى قدمه فى عام ١٩٢١ أفضل ما يضعنا على تصوراته الأساسية بهذا الصدد حيث تناول العادات الاجتماعية والأعراف والرأى العام، كما انتقد نظرية باريتو Pareto فى الرواسب أو البواقى الثقافية Residues وقدم بدلا من ذلك تحليلا دقيقا لدور العقل والدوافع فى السلوك الاجتماعى.

وربما كان من أبرز المواقف التى تضمنها هذا الكتاب مهاجمته فكرة العقلية البدائية التى يقول أصحابها بأنها عقلية غير منطقية فهو يرى أن الاختلاف الرئيسى بين العقلية البدائية والعقلية المتحضرة هو فى نسبة مجال ما هو طبيعى إلى ما هو فوق طبيعى وبذلك فإن العقلية البدائية هى عقلية منطقية لأنها تستخدم أيضا مبدأ العلية ولكن بغير المعنى الذى نجده عند الإنسان المعاصر.

فى عام ١٩٣٢ ظهر كتابه «دراسات فى علم الاجتماع» Studies in Sociology، ثم بعد ذلك كتابه «علم الاجتماع» Sociology (١٩٣٤) ومن بعدهما كتابه الهام «العقل واللاعقل فى علم الاجتماع» Reason and Unreason in Sociology (١٩٤٧) وفى كل هذه الكتابات ضمن جينزبرج فيضا من المعلومات النظرية والواقعية لتجئ جهدا أكاديميا لا غنى لدارس علم الاجتماع عن الوقوف عليها.

ومع أن البعض يرى انطباع هذه الكتب جميعها بطابع سيكولوجى وهذا صحيح إلى حد بعيد إلا أن الأمر كان أشبه بالضرورة الموضوعية مع ذلك بحكم نوعية القضايا التى تثيرها. وإذا كان قد برز لديه فهم خاص للميتافيزيقا يختلف كثيرا عن فهم أوجيست كونت الذى ذهب إلى أنها مرحلة سابقة على التفكير الوضعى فقد أبرز جينزبرج حقيقة أن فهم كونت لطبيعة المنهج الوضعى إنما يرتكز على تمييزات ميتافيزيقية لم يخضعها للتحقيق والاختبار ذاهبا فى ذلك إلى أن وضعية كونت لم تفعل أكثر من أنها قد اصطنعت منهج العلم رغم كل الادعاءات بما هو عكس ذلك.

★ ★ ★

ولد جلوكمان فى يناير عام ١٩٠٠ فى جوهانسبرج Johannesburg فى جنوب أفريقيا وهو عالم أنثربولوجى يتميز باسهاماته الضخمة فى الأنثربولوجيا السياسية على وجه الخصوص وخاصة تحليله للنظم السياسية للقبائل الأفريقية. وكذلك دراساته للصراع وللمنازعات وعداوات الدم إذ اهتم اهتماما كبيرا بابراز علاقاتها بالتغير الثقافى على نحو ما نجده بصفة خاصة فى كتابه الشهير «العرف والصراع فى أفريقيا» Custom and Conflict in Africa الذى صدر فى ١٩٥٥.

والواقع أن جلوكمان تعتبر من أوائل الذين أكدوا على أهمية دور الصراع فى المجتمعات البدائية ولكنه حاول فى هذا إبراز الجوانب الوظيفية فى الصراع باعتباره ليس دائما عامل هدم كما يعتقد الكثيرون. وقد كان من الطبيعى أن يهتم - إلى جانب هذا - بالتعرف على طبيعة القانون البدائى والطرق التى تلجأ إليها الجماعة البسيطة لحل منازعاتها كالتعويض أو القيام ببعض الخدمات ... إلخ. مما يعنى أنه هدف فى النهاية إلى الوقوف على الدور الذى يلعبه هذا القانون فى تنظيم المجتمع نفسه والحفاظ على استقراره. فالقانون فى رأيه يعنى مجموعة القواعد المقبولة من أعضاء المجتمع الأسوياء باعتبار أنها التى ترسم طرق السلوك الصحيح الذى يتعين على الأفراد الالتزام بها فى صلاتهم وعلاقاتهم بعضهم ببعض وبكل ما يوجد فى المجتمع من أشياء وهو تعريف بسيط أقرب إلى طبيعة البحث الانثربولوجى الذى يعنى على وجه الخصوص بقوانين المجتمعات البدائية والقبلية والبسيطة التى لم يتعقد تركيبها وبناؤها السياسى بعد ومن ثم فقد سعى إلى ابراز دور المحكمين البدائيين وميلهم إلى المصالحة بين الأفراد لمنع الصراع من الانتشار إلى باقى الأعضاء الأمر الذى ترتب عليه أن يلقى الضوء على علاقة الصراع بالتفاوت فى التطور والنمو التكنولوجى الذى كان يحتم البحث عن وسائل أخرى لتحقيق الضبط والنظام معا.

ولقد تنقل جلوكمان فى العديد من المناصب التى هيأت له امكانات القيام بدراساته الحقلية. فبعد أن نال درجة الدكتوراه فى الأنثربولوجيا الاجتماعية من اكسفورد عمل باحثا فى معهد ليفنجستون رودس للدراسات الاجتماعية فى أفريقيا

الوسطى البريطانية (روديسيا الشمالية) حيث أجرى العديد من الدراسا فى بارتسولاند ما بين عامى ٣٩ و ١٩٤١ وقام ببعض البحوث على قبائل التونجا Tonge (١٩٤٤) وأيضا شعب اللامبا Lamba (١٩٤٦) ثم حاضر فى اكسفورد (٤٧ / ٤٩) ليصبح من عام ١٩٤٩ أستاذا للانثربولوجيا الاجتماعية فى جامعة مانشستر. هذا بالاضافة إلى بحوثه ودراساته فى الهند وبريطانيا وبخاصة فى مجال علم الاجتماع الصناعى.

ويمكن الوقوف على اطار تفكيره الواسع من خلال عناوين كتبه ومؤلفاته حيث كتب «شعائر التمرد (الانعزال) فى جنوب شرق أفريقيا Rituals of Rebllion in South - East Africa و«السياسة والقانون والشعائر فى المجتمع القبلى» Politics, Law and Ritual in Tribal Society (١٩٦٥)، و«الأفكار فى نظام باروتسو القانونى» The Ideas in Barotse Jurisprudence (١٩٦٥) كما أشرف على تحرير وإعداد The Allocation of Responsibility فى ١٩٧٢ . أى قبل وفاته بثلاثة أعوام.

★ ★ ★

نجحا معا وتمكنا من تحقيق مكانة رفيعة كعالمين من علماء الاجتماع وكبار المتخصصين فى علم الاجرام Criminology اللذين كانت لدراساتهما عن السلوك الاجرامى وعن آثار ونتائج المعاملة الاصلاحية أعمق الأثر فى تطوير نظم العدالة الجنائية Criminal Justice سواء من الناحية التشريعية أو من الناحية الأدائية والادارية.

هما العالمان شلدون جيلوك وزوجته اليانور من أصل بولندى ولكنهما عاشا فى الولايات المتحدة الأمريكية التى قدم هو إليها فى ١٩٠٣ ليصبح مواطنا أمريكيا فى ١٩٢٠ وبعدها تزوجا فى ١٩٢٢ وظل زواجهما قائما حتى توفيت هى فى ١٩٧٢ ثم توفى هو بعدها بسنوات فى ١٩٨٠ . ولقد تلقى شيلدون جيلوك تعليمه فى جامعة جورج تاون وفى الجامعة الوطنية للقانون ثم فى جامعة هارفارد التى نال منها درجة الماجستير ودرجة الدكتوراه وتولى مهام التدريس بها من عام ١٩٢٥ إلى عام ١٩٦٣ حيث تقاعد وأصبح أستاذا متفرغا من هذا التاريخ. أما زوجته فكان اسمها قبل الزواج اليانور توروف Touroff وقد ولدت فى بروكلين بأمريكا وتلقت تعليمها فى برنارد كوليج وفى مدرسة الخدمة الاجتماعية بنيويورك ثم فى جامعة هارفارد التى عملت فيها باحثة فى علم الاجرام من عام ١٩٢٥ حتى وفاتها فى عام ١٩٧٢ .

ولمدة تزيد على أربعين عاما ارتادا معا سيرة حياة المئات من المجرمين والجانحين واشتركا معا فى العديد من المؤلفات والمقالات والدراسات التى يمكن القول بأنها قد توجت بالعمل الرئيسى الذى ترجع إليه شهرتهما وهى «جداول التنبؤ الاجتماعى» Glueck's Social Predection Tables التى وضعا تصميمها وطرائق تطبيقها واستخدامها والتى توصلا إليها من دراساتهما وبحوثهما فى السلوك الاجرامى والانحرافى التى حاولا فيها تحديد خصائص الجانحين ومن يحتمل جناحهم فى ضوء العديد من الحالات التى كانت من الأطفال فى سن السادسة واحدة من أهم هذه الدراسات التى اعتمدا فيها على المناهج التتبعية للأفراد والجماعات بغرض رؤية الآثار الناجمة على مدى الفترات الزمنية المختلفة للتعرف على اتجاهات السلوك الانحرافى بعرض عام ومحاولة التنبؤ باحتمالات السلوك الجانح فى ضوء ما يتوافر من معلومات مؤلفهما تحت عنوان «جناح الأحداث

اللاتجـوالى» Unroveling Jevenile Delinquency (١٩٥٠) الذى قـارنا فـيـه بين ٥٠٠ حالة جانحة و٥٠٠ حالة أخرى من غير الجانحين وهى عينة راعى فيها أن تكون متجانسة فى السن والذكاء والأصل وانتهى إلى قصور العوامل السيكولوجية وحدها فى تفسير الاختلافات بين المجموعتين حيث برزت فى مقابل هذا أهمية وخطورة الدور الذى تقوم به ثقافة الجناح Delinquent Culture المتفشية فى المنطقة محل الدراسة.

ومع أن شلدون جيلوك قد كتب دراسة خاصة عن روسكو باوند تحت عنوان «روسكو باوند والعدالة الجنائية» Rosco Pound and Criminal Justice (١٩٦٤) إلا أنه عاد ثانية إلى قضية الجناح فصدر لهما مؤلفهما «البنية والجناح» Physique and Delinquency (١٩٦٥) الذى اشتمل على تحليل للعلاقات بين أنماط الجسم وبعض سمات الشخصية والعوامل الاجتماعية والثقافية بهدف تحديد أى سمات الشخصية والعوامل الاجتماعية هى التى تباشر تأثيرا فارقا له دلالته الاحصائية على الجناح فى مختلف الأنماط الجسمية. وانتهيا إلى أن النمط المتوسط التركيب (ميزوفورميك) لديه قابلية عالية للجناح تفوق أى نمط جسمى آخر إذ ترتبط به ميول الهدمية والسادية وكذلك انعدام التوازن الانفعالى أكثر من ارتباطها بجناح أصحاب النمط الخارجى التركيب (الأكتومورفيك).

كذلك ظهر لهما فى عام ١٩٦٨ مؤلفهما Delinquents and Nondelinquents in Prespective عبارة عن دراسة تتبعية على مدى ١٥ عاما اشتملت على بعض دراساتهما المبكرة. وما أن فرغا من هذا المؤلف حتى انشغلا فى عملهما الأخير المشترك الذى ظهر تحت عنوان «نحو تنميط للأحداث المذنبين: تضمينات لعلاج وقائى» Toward a Typology of Jevenile Offenders: Implications for Therapy Prevention (١٩٧٠). حيث أكدا فى هذا الكتاب على أن فكرة المناطق المتخلفة SlumAreas أو ما يطلق عليه المناطق الانتقالية لا يمكن أن تفسر بمفردها ظاهرة الانحراف.

★ ★ ★

عالم الاجتماع الكندى الأصل ايرفنج جوفمان من أكثر علماء الاجتماع تأثيرا فى دراسات سوسيولوجيا الجماعات الصغيرة على الأقل فى الفترة خلال الستينيات والسبعينيات من القرن الماضى. فقد انبنت شهرته الواسعة بسبب تحليله للقواعد الاجتماعية التى لا تتصف بصفة المباشرة ولكنها كامنة وتتحكم مع ذلك فى مختلف صور التفاعل غير اللفظى ولذا فهو يعتبر من أكبر المشايعين لنظرية التفاعل الرمزى وواحدًا من أكبر أتباع مدرسة شيكاغو فى التفاعلية الرمزية إذ تتلمذ على أيدى هربرت بلومر Blumer الذى كان يعتبر من أقطابها المرموقين.

ولد ايرفنج جوفمان فى مانفيل Mannville فى البيرتا Alberta بكندا فى ١١ يونيو عام ١٩٢٢ وتعلم فى جامعة تورنتو حيث تخصص فى العلم الاجتماعى وحصل على درجة الماجستير (١٩٤٩) ثم الدكتوراه فى علم الاجتماع (١٩٥٣) من جامعة شيكاغو وقام بتدريس علم الاجتماع والانثربولوجيا من عام ١٩٦٨ إلى عام ١٩٨٢ (عام وفاته) فى جامعة ادنبرة التى انتقل منها إلى جامعة كلى ثم إلى جامعة بنسلفانيا.

ومنذ البداية اتسم تفكير جوفمان بالاصالة والعمق فقد قرأ دور كايم وجورج زيمل واهتم اهتماما كبيرا بكتابات مختلف الاتجاهات الصورية على وجه الخصوص وبخاصة فى نزعتها إلى التعميمات لدرجة أنه كان يسقط من حسابه كثيرا من التفاصيل التى قد يضيع فى ثناياها جوهر ما يهدف إليه ويريد أن يقوله خاصة وأن كل كتاباته كانت تدور حول العلاقات الاجتماعية ومظاهر السلوك البشرى بجوانبها الظاهرة والمضمرة ولكنها بالذات ما اعتبره تركيبا صادقا للواقع الاجتماعى.

ولقد سعى جوفمان إلى بلورة نظريته الخاصة فى مظاهر السلوك البشرى فى عدد من مؤلفاته لعل أهمها كتابه «تقديم الذات فى الحياة اليومية» The Presentation of Self in Every day Life الذى صدر فى ١٩٦٥ . ففى هذا الكتاب الذى يعتبر أشهر كتبه عرض نظريته فى التفاعل الاجتماعى والفكرة المحورية عنده أننا نقدم أنفسنا إلى الآخرين فى صور مختلفة ومن خلال أقنعة تختلف باختلاف المواقف التى نجد أنفسنا طرفا أو منخرطين فيها، كاشفا بذلك عن أن كل ما يصدر

عن الإنسان من إيماءات وإشارات تلقائية وغير مقصودة ومن بينها حتى حركة العينين أو وضع الجسم وحركاته وما إلى ذلك من مظاهر السلوك إنما لها وضعية ذات معنى وتأثير إيجابى فى العملية الاتصالية إذ تتحدد فى ضوئها الكثير من ردود الأفعال من قبل الآخرين. وهى ما يتفق مع نظرته إلى الحياة ذاتها التى نظر إليها على أنها مسرح كبير مليئ بالمواقف التى يقوم فيها الأشخاص بدور الممثلين الذين يسعون إلى التأثير أو على الأقل ترك انطباعات معينة فى المشاهدين. وكذلك الحال بالنسبة إلى كل منا فى سعينا المتواصل إلي أن تؤثر صورتنا عن ذواتنا فى الآخرين أطراف التفاعل والمشاركين فى المواقف على نحو أو آخر.

والكتاب الهام الثانى أصدره جوفمان فى ١٩٦٩ تحت عنوان Where the Action Is? واهتم فيه أهتماما خاصا ببناء المواقف الاجتماعية والقواعد التى تحكم هذه البناءات أكثر من اهتمامه بالمحتوى الذى اعتقد أنه كثيرا ما يتغير ويتلون بتغير القواعد ذاتها وبالتالى تأثيرها فى بناء المواقف الاجتماعية ومضامينها. كما صدر له كتابان آخران على غاية من الاهمية أحدهما ظهر فى أواخر حياته (١٩٧٤) بعنوان «التحليل الاطارى: مقال فى تنظيم الخبرة» Frame Analysis: An Essay on the Organization of Experience. 1974 واهتم فيه بدراسة عمليات الاتصال غير اللفظى. على حين يعتبر الكتاب الهام الثانى آخر كتبه إذ صدر قبل وفاته بثلاثة أعوام بعنوان: Gender Advertisment ويدور حول دراسة متعمقة لخصائص بعض الصور واللوحات والبورتريهات التى تنطوى صراحة وضمنا على أهداف دعائية وإعلامية ترتكز على ما تكرره دائما وتروج له من قيم تستهدف التأثير فى مشاعر المستهلكين وبالكاد فى الطبقة السطحية الرقيقة من وعيهم.

★ ★ ★

من أهم الذين جمعوا بين البعدين السياسى والاجتماعى فى كتاباته العلمية والأدبية. ولذا فمن الصعب حقيقة فهم لوسيان جولدمان فهما جيدًا وفهم مساجلاته ومواقفه الفكرية بعيدًا عن هذين البعدين وعلى وجه الخصوص بعيدًا عن تراث واسهامات وتقاليد مدرسة فرانكفورت وذلك لأن كل النقاش الدائر من حول قضية علم اجتماع المعرفة والأدب والعلم والثقافة عموما وكلها موضع اهتمام جولدمان الأصيل لا يمكن الاحاطة به واستيعابه بصورة واضحة إلا من خلال أعمال ما نهايم ولوكاتش التى مارست عليه تأثيرا متزايدا وبخاصة فى نظريته الجمالية وعلم اجتماع الأدب التى أقامها على علم اجتماع المعرفة وإن كان من المهم القول مع ذلك أن أعمال كاتب مثل جولدمان ستظل بسبب ارتباطها وقربها الشديدين بماكس فيبر تدفع بالحياة لوقت طويل فى التقليد الماركسى الراسخ فى علم الاجتماع.

ولقد ولد الفيلسوف وعالم الاجتماع الفرنسى لوسيان جولدمان فى عام ١٩١٣ ولكن شهرته تجاوزت الحدود الحضارية والاقليمية لوطنه فاكتسب شهرة عالمية جعلت منه أحد كبار المفكرين المعاصرين فهو واحد من كبار النقاد الفرنسيين المعاصرين الذين انبنت شهرتهم على موقفه الخاص من العلاقات الجدلية بين التيارات الثقافية والاجتماعية والبناءات اللغوية وهى علاقة يمكن تحليلها وإن كان وجه الخطورة يكمن فى أنه وإن كنا لا ننكر ما ذهب إليه علماء كبار مثل ياكوبسون Jakobson، وكارشفسكى Karcevsky، وتروبتسوى Troubetzkoy من وجود هذه العلاقة الجدلية فقد تجاوز جولدمان الارتباطات اللغوية البنائية فلم يقم تصوره على منهج تاريخى اجتماعى يقوم على التصور المادى الجدلى للتاريخ وإنما تطرف فى ذلك إلى حد أنه اعتبر أى انتاج ثقافى لا يرتبط بالتصور الماركسى للتاريخ مجرد وهم ولغو وهراء ومتخذا بذلك موقفا حاسما من العلم الوضعى Positive Science الذى انتقده بعنف الأمر الذى يمثل فى الحقيقة بؤرة اهتمام أساسية فى تحليله لعلم اجتماع المعرفة ويكشف فى الوقت نفسه عن وجه الالتقاء بينه وبين أقطاب مدرسة فرانكفورت وهو التفسير الماركسى الذى يناهض النزعة العلمية لليسار التقليدى

القديم وكذلك الراديكالية الزائدة فى اليسار الجديد أيا كانت المسميات التى تتخذها الإنسانية أو المثالية أو كلاهما.

والواقع أن هناك منطلقات أساسية وحاكمة فى تفكير جولدمان فهو يذهب - بداية - إلى أن علم الاجتماع وبخاصة فى أشكاله اللاماركسية، قد أصبح علما خادما للمصالح الرأسمالية تظهر توجهاته الأساسية فى دعمه أهداف التكنولوجيا حتى أصبح يوجه معظم اهتمامه إلى المشكلات الصغيرة والبحث عن حلول مؤقتة لها أكثر منه الاهتمام بالقضايا الأكثر أهمية المتعلقة بالتطور التاريخى.

ويؤكد جولدمان موقفه هذا ذاهبا إلى أن علم الاجتماع الأمريكى على وجه الخصوص قد انغمس فى مرحلة من مراحله - ومازال - فى محاولة شرح وتفسير وسائل التكيف والتوافق الاجتماعيين مع التقدم الآلى والتكنولوجى وما ينشأ عن هذا التقدم من مشكلات صار المجتمع الرأسمالى ممتلئا بها. أما ما يعنيه جولدمان بذلك فهو إن البحث قد فقد أهم دوافعه وهو البحث فى التغيرات الكيفية التى تطرأ على البناءات الاجتماعية وأيضا الأبعاد التاريخية للحقائق الاجتماعية وهذا ما عبر عنه فى كتابه المعنون «العلوم الإنسانية والفلسفة» The Human Sciences and Philosophy (١٩٦٩) والذى نشر لأول مرة فى عام ١٩٥١ .

ولكن جولدمان سعى إلى تطوير هذه القضية السابقة إلى ما هو أبعد من ذلك فحاول إلقاء الضوء على هذا الاهتمام (الميثودولوجى) الأمر الذى لا يرجع فحسب إلى اخضاع علم الاجتماع للمصالح الرأسمالية وإنما نتيجة أيضا لما يوجد من غموض وخلط فى القيم العلمية وفى العلاقة بين الحقائق الاجتماعية والحقائق الطبيعية والمحاولات التى تهدف إلى جعل علم الاجتماع تابعا لمناهج العلوم الطبيعية والكيميائية عموما. وفى هذا فإنه يخلص إلى نتيجة هامة مؤداها أن محاولة جعل علم الاجتماع علما يتصف بالعلمية إنما هى محاولة لمنعه من أن يرى المجتمع ككل أو كسياق اجتماعى مفتوح للتغير وفعل التغير. ويلقى مسئولية مباشرة على علم اجتماع المعرفة لأنه باعتباره أساسا للنقد مسئول مسئولية ضخمة عن هذه الوضعية طالما أنه موجه إلى تحليل الأسس القائمة للمناهج الاجتماعية ومن ثم فإن على علم اجتماع المعرفة أن يعمل جاهدا على قيام علم اجتماعى تاريخى يقف فى مقابل علم الاجتماع السائد حاليا.

ولا يزال الجدل دائرا حول أعمال لوسيان جولدمان وكتاباته التى عبر بها عن مواقفه المتعلقة بعلم اجتماع الأدب ونظريته الجمالية على وجه الخصوص وهذه ناحية استأثرت بجانب كبير من اهتماماته ويصعب التغافل عنها إذا ما أريد فهم جولدمان وفلسفته فهما سليما متكاملا خاصة وجولدمان له موقف محدد من النص الأدبى يتضمن معانى اجتماعية أو ما يعرف عموما بالمحتوى الاجتماعى للكتابة.

ولا ترجع مواقف جولدمان فقط إلى تلك الأفكار التى تبناها عن ماركس وما حواه فكره من تصورات وإنما إلى إحاطته الواسعة بالانتاج الفكرى والفلسفى على مدى العصور السابقة التى مر بها الفكر الغربى عموما وبخاصة التراث الأدبى عن عصر التنوير رغم ضخامته وغزارته وهو ما انعكس فى كتاباته فى مختلف مراحل تطوره الفكرى. ففى عام ١٩٤٨ صدر كتابه المعنون «الجماعة الإنسانية والكون عند كانط» La Communauté Humaine et l'Univers chez Kant ثم دراسته عن المسرح والتراجيديا فى فكر باسكال التى ظهرت تحت عنوان طويل نسبيا هو Le Dieu Caché: Etude Sur la Vision Tragique dans les Pensées de Pascal et dans le Théâtre de Racine (١٩٥٥) ومن بعده كتابه عن «فلسفة عصر التنوير» The Philosophy of the Enlightenment (١٩٧٣) ومن قبله كتابه «الابداع الثقافى فى المجتمع الحديث» La Création Culturelle dans la Société Moderne الذى صدر عام ١٩٧١ .

ولكن الكتاب الذى يعتبر أكثر أهمية فيما يتعلق بنظريته الأدبية كان كتابه المعنون «نحو علم اجتماع الرواية» Pour Une Sociologie du Roman الذى صدر فى عام ١٩٦٤ وضمنه نظريته الأدبية والفلسفية. وحيث لعب مفهومه الخاص برؤية العالم دورا محوريا فى توضيحها خاصة وإن علم اجتماع الأدب عنده يدور حول قضايا أثارها جورج لوكاتش فى علم اجتماع المعرفة وإن كان قد اختلط بها عند جولدمان عناصر هيجلية جديدة علاوة على نزعته المضادة للوضعية والإنسانية عموما.

إن مفهوم رؤية العالم الذى كان لدلتاى الفضل فى طرحه اتسع توظيفه فى العديد من المجالات التى ربما لم تكن قائمة أو موجودة على الساحة من قبل. وإذا كان المفهوم فى جوهره يسعى إلى الفهم والوعى بالظاهرة فى سياقها الاجتماعى والثقافى فقد أفاد منه جولدمان الذى تبنى المادية الجدلية وأقام عليه نظريته فى

الأدب والفلسفة على اعتبار أن كل مجال منهما إنما يعبر عن رؤية العالم التى هى فى جوهرها عبارة عن وقائع اجتماعية وليست فردية. أما معنى هذا فهو أن رؤية العالم هى فى جوهرها وجهة نظر موحدة ومتماسكة إزاء الواقع بأكمله وهذه نقطة محورية وتختلف تماما عن الرؤية الفردية وعن أفكار الفرد التى نادرًا ما تكون متماسكة. فكأن جولدمان فى اهتمامه بالأعمال الأدبية قد اعتبر رؤية العالم أداة تصورية للعمل كما اعتبرها ضرورية لفهم التعبيرات المباشرة لفكر الفرد. وأداة تسمح باستخلاص العنصر الأساسى فيما يدرس من أعمال.

★ ★ ★

يمثل عالم الأنثربولوجيا والأثنولوجيا الأمريكى وارد هنت جودانف (مع كونكلين Conklin فى الحقيقة) أحدث الاتجاهات البنائية التى عرفت طريقها إلى الانتشار فى الولايات المتحدة الأمريكية بعدما ذاع صيتها أولا فى فرنسا على أيدى كلود ليفى ستروس بصفة خاصة ومثلها فى انجلترا ادموند ليتش وهى الاتجاهات التي صارت توصف (بعدما لحقت البنائية التقليدية بعض التحويرات والتعديلات وغير قليل من المفهومات والتصورات التى تتفق والعقلية الأمريكية) «بالاثنوجرافيا الجديدة» New Ethnography أو «بعلم الجماعية» Ethno science كما يطلقون عليها أحيانا.

وقد ولد جود إنف عام ١٩١٩ ومنذ أن بدأ حياته العلمية كأستاذ فى جامعة بنسلفانيا وقد انشغل بتطوير مدخل تحليلى سيمانتيكى لدراسة الأنساق الثقافية وساعده فى تحقيق هذا المشروع الذى اشتهر به قيامه بعدد من البحوث والدراسات بين قبائل التروكيز Trukese فى ميكرونيزيا Micronesia حيث أمدته هذه الدراسات والبحوث بكم هائل من المعلومات والمادة الاثنوجرافية التى مكنته من المقارنة والتحليل.

وبحوث الدلالة (السيمانتيك) Semantics يذهب اللغويون إلى أنها تهتم بدراسة اللغة من حيث كونها أداة للتعبير عما يجول بالخاطر والفكر. ومع أن علم الدلالة تشتمل بحوثه على علم المفردات Lexicology وعلم المورفولوجيا Morphol-ogy وعلم التنظيم (السنتكس) Syntax وعلم الأساليب Stylistics كما أنه يهتم أساسا بدراسة معانى الكلمات والبناءات والعلاقات الدلالية المختلفة وكل ما يطرأ على هذه النواحى بفعل التغيير إلا أن جودإنف قد ذهب بعيدًا عما يتصف به هذا العلم من نزعة فلسفية صاحبته منذ نشأته وبخاصة عند ميشيل بريال Breal وأخذ يركز تركيزا كبيرا على الجوانب الأشد عمقا والتى تتمثل فى نظرية المعنى والمجالات الدلالية بوجه خاص. حيث أعطى عناية فائقة للاقتراب التحليلى Analytical الذى تكون فيه الجملة أو القضية التحليلية صادقة فى ضوء تحليل المركب الذى تصاغ

منه ووفقا للكلمات ومعانيها على حين يتضح صدق الجملة التركيبية فى ضوء الحقائق الامبريقية.

وليس من شك فى أن هناك الكثير من العلماء الذين سعوا دائما إلى إلقاء المزيد من الضوء على الجوانب ذات الصلة الوثيقة بين الانثربولوجيا الثقافية التى تهتم بالإنسان ككائن ثقافى والاثنولوجيا التى تهتم بدراسة الذاتيات الثقافية للشعوب والخصائص التى تميز ثقافة من الثقافات عن الأخرى وهما العلمان اللذان يلقيان بالضوء على الظروف البيئية والاقليمية التى عاشها الإنسان وما نجم عن ذلك من تأثير فى النظم اللغوية وفى التراث الثقافى بوجه عام إضافة إلى الكشف عن القوى المؤثرة فى تباين أو تشابه اللغات بين الأقاليم المختلفة على النحو الذى برز في أمريكا على أيدى أمثال جرينبرج وهوايتلى اللذين اهتما بدراسة اللغة وسط البيئة الثقافية العامة. ولكن الملاحظ فيما يتعلق بجودإنف أنه أكد تأكيدا زائدًا على الجوانب المتعلقة بوصف اللغة وعلى النواحى البنائية وإنما فى ضوء تعريفات الناس أنفسهم للجوانب الدالة للحقيقة والأنساق التى تنتظم بها هذه الدلالات كمداخل للتفاهم فيما بينهم وكمداخل لإدراكهم العوالم التى يعيشون فيها وهو ما أطلق عليه مصطلح دلالة الجماعية أو الاثوسيمانتيك Ethnosemantics الذى لقى انتشارا ملحوظا خلال العقود الأخيرة من القرن الماضى.

من بين كتاباته المبكرة كتابه بعنوان «الملكية والعشيرة والمجتمع على المحك» Property, Kin and Community on Truk (١٩٥١) ثم مؤلفاته الأكثر تخصصا وأولها بعنوان «الوصف والمقارنة فى الانثربولوجيا الثقافية» Description and Comparision in Cultural Anthropology (١٩٧٠) والثانى بعنوان «الثقافة واللغة والمجتمع» Culture, Language and Society (١٩٧١) أما مؤلفه الثالث فقد أصدره بالاشتراك مع كونكلين تحت عنوان «تصنيف شعبى: ببليوجرافيا مرتبة موضوعيا عن مرجعيات معاصرة وغيرها خلال ١٩٧١» Folk Classification: A Topically Arranged Bibliography of Contemporary and Background References Through 1971 (١٩٧٢).

★ ★ ★

يصنف عالم الاجتماع الأمريكى آلفين جولدنر على أنه واحد من أكبر أنصار الاتجاه النقدى فى علم الاجتماع فهو من أبرز العلماء الذين أسهموا فى نقد علم الاجتماع المعاصر والنظرية الاجتماعية وهو بذلك يمثل الحركة النقدية المعاصرة التى تركز بصفة أساسية على ضرورة ربط النظرية بالسياقات الاجتماعية.

وقد ولد جولدنر فى نيويورك عام ١٩٢٠، وتلقى تعليمه فى جامعة كولومبيا التى نال منها درجة الماجستير عام ١٩٤٥ والدكتوراه عام ١٩٥٣ . وخلال هذه الفترة التحق بجامعة بافالو Buffalo حيث عمل محاضرا فى علم الاجتماع فى الفترة من ١٩٤٧ إلى ١٩٥١ . وبعدها عمل استاذا مساعدا فى كلية آنتيوش (٥٢ / ٥٤) ثم أستاذا لعم الاجتماع بجامعة واشنطن (١٩٥٤ / ١٩٦٧) ودعته جامعة هارفارد كأستاذ زائر خلال فصل الربيع والصيف (١٩٥٦) ثم عين أستاذا للنظرية الاجماعية منذ ١٩٧٦ وقام بالتدريس فى الجامعة العبرية وجامعة وارسو وجامعة برلين الحرة وفى مدرسة الاقتصاد فى ستوكهولم.

وهناك مقولة مشهورة قالها جولدنر وتشير إشارة واضحة إلى متضمنات رؤيته ومواقفه الفكرية مؤداها «إننا في حاجة إلي مجتمعات جديدة وليس تنظيرات جديدة» إذ يمكن في ضوئها فهم ما طرأ على تفكيره من تقلبات. فمما لا شك فيه أن جولدنر كان في مقدمة علماء الاجتماع المعاصرين الذين وجهوا أشد الانتقادات إلى الوظيفية وبخاصة وظيفية تالكوت بارسونز Parsons لاعتقاده أن بارسونز قد اعتمد فى تفسير التغير الاجتماعى على أساس تطورى الأمر الذي اعتبره جولدنر محاولة لاحياء التطورية السبنسرية رغم التمسح بالتقليد الماركسى وهو ما تقبله جولدنر إلى حد ما على اعتبار أنه حتى صدور كتابه الشهير «الأزمة القادمة لعلم الاجتماع الغربى» The Coming Crisis of Western Sociology الذى صدر فى ١٩٧٠ كان يصنف كواحد من الوظيفيين الذين يهتمون بالتنظيم الصناعى وإن كانت هذه النظرة قد تغيرت تغيرا جذريا ليصير واحدا من الراديكاليين وأنصار الاتجاه النقدى للعلم خاصة وأنه قد سعى منذ وقت أسبق على هذا التاريخ إلى تطوير

نظرية التنظيم لكى تكون أقدر على دراسة ديناميات الحياة الاجتماعية فى تنظيمات العمل وظهر ذلك فى دراسة له لأحد المصانع حيث حاول اختبار نظرية ماكس فيبر عن البيروقراطية التى تزايدت فى المجتمع الصناعى المعاصر. ففى كتابه الذى نشر فى ١٩٥٥ بعنوان «أنماط البيروقراطية الصناعية» Patterns of In- dustrial Bureaucracy سعى إلى تقديم صورة متكاملة للنمو التنظيمى يظهر فيها تأثره بأفكار روبرت ميرتون Merton وعلاقة ذلك بالظروف المجتمعية من منظور ثقافى وحضارى محددا فى ذلك عناصر البيروقراطية وآثارها وعلاقات القوة التى تعمل فى الكيان الواقعى للتنظيم وتؤثر فى طبيعة العلاقات الإنسانية القائمة فيه.

إذن فيمكن اعتبار كتاب «الأزمة القادمة لعلم الاجتماع» نقطة تحول مركزية فى تفكير جولدنر دفعته إلى البحث فى طبيعة العلاقة بين الفرد والمجتمع وإلى تتبع أصول النظرية السوسيولوجية والتعرف على العلاقات القائمة بينها وبين الاتجاهات الفكرية والمذاهب والايديولوجيات المختلفة. كما سعى فى الوقت نفسه إلى الكشف عن العلاقة بين البناء التحتى للمفكر أى مشاعره واهتماماته التى تتحكم فى فكر المنظر وبين النظريات التى يقدم على صياغتها لوصف الواقع وتفسيره ومن ثم تشخيصه لأزمة العلم لتصحيح مساره وتخليصه من أزمته التى كان على قناعة بقرب وقوعها.

ولقد تبلورت المشكلة التى قابلها فيما يعانيه علم الاجتماع من مشكلات نظرية ومنهجية والتداخل الكبير بين مختلف الاتجاهات التى لا تحظى إلا بقبول ضئيل بين المشتغلين بالعلم وهو ما عبر عنه بمشكلة الوضعية المعاصرة لعلم الاجتماع والتى اعتبر أنها مشكلة تحليلية بالدرجة الأولى.

فى عام ١٩٧٣ نشر جولدنر كتابا جديدًا بعنوان «من أجل علم الاجتماع: التجديد والنقد فى علم اجتماع اليوم» For Sociology: Renewal and Critique in Sociology عبارة عن محاولة للرد على بعض الانتقادات التى وجهت إلى كتابه «الأزمة القادمة لعلم الاجتماع الغربى» فكان بمثابة مناقشة مستفيضة لدعوى وجود علم اجتماع متحرر من القيمة وهو ما أنكره بعنف مؤكدا فى ذلك على تأثر الأعمال السوسيولوجية بالأيديولوجيا مما جعله يركز على معارضة ونقد فيبر ودور كايم

وبارسونز خاصة من حيث تأثرهم الشديد بكارل ماركس ومؤكدا فى الوقت نفسه على صعوبة وجود نظرية للعلم دون نقد المجتمع.

ولقد قامت محاولات عديدة لإرساء ما يعرف بعلم الاجتماع الجديد New Sociology وبخاصة على أيدى س.رايت. ميلز Mills وأعماله التى ارتبطت باليسار الجديد الذى ظهر فى الخمسينيات وأوائل الستينيات من القرن العشرين. ولكن هذه الانتفاضة سرعان ما أصابها الاضمحلال بسبب عدم تطور أفكارها وفشلها فى اعطاء العالم الجديد روحا جديدة. ثم ظهر بعد ذلك علم الاجتماع النقدى Critical ومن بعده علم الاجتماع الراديكالى Radical وجميعها حركات ارتبطت بالاتجاهات السياسية السائدة.

غير أنه فى خضم هذه المحاولات قدم ألفين جولدنر شكلا جديدا فيما يعرف باسم علم الاجتماع التوفيقى أو المرتد Reflexive حيث ينحت عالم الاجتماع مفهوماته وتصوراته الاجتماعية متسلحا بتكوينه الفكرى وثقافته الذاتية الأمر الذى وصفه البعض بأنه نوع من الأمبريقية التى تفتقر إلى التجديد. ومهما يكن الأمر فإن كل هذا! يصدمنا بحقيقة وجود أزمة سواء فى الحياة الاجتماعية أو نمط التفكير الذى يواجه به علم الاجتماع واقعه المأزوم. الأمر الذى عبر عنه فى كتابه عن أزمة علم الاجتماع والتى حاول أن يبلورها من خلال النسقين السائدين فى علم الاجتماع وهما الوظيفية من ناحية والماركسية من ناحية أخرى باعتبارهما النسقين المسيطرين تماما على النظرية الاجتماعية وكله مما يدفع إلى مزيد من البحث عن فكر جديد وأطر نظرية جديدة تكون أقدر على فهم الواقع القائم وتغييره.

★ ★ ★

على الرغم من أصوله الروسية فإن عالم الانثربولوجيا الكسندر وفيتش جولد نفايزر يعتبر واحدا من أهم علماء الانثربولوجيا الأمريكيين الذين أضافوا إلى الانثربولوجيا الثقافية على وجه الخصوص، فقد لعب دورا هاما فى هذا الفرع وأيضا فى علم الاجتماع الأمريكي والتحليل النفسى واهتم فى ذلك بمسألة التمايز والتغاير الجنسى بين سكان أمريكا ومعظمهم من المهاجرين ومن أصول وبيئات ثقافية مختلفة ولذا كان اهتمامه بتطور الانثربولوجيا الثقافية ضمن مبادرات الرواد الأوائل من أمثال كروبير وكلكهوهن.

ولد جولد نفايزر فى كييف Kiev عام ١٨٨٠ وهاجر مع أسرته إلى أمريكا حيث درس تحت إشراف فرانز بواز فى جامعة كولومبيا التى منحته درجة الدكتوراه عام ١٩١٠ . ونتيجة لتأثره بأستاذه اهتم منذ وقت مبكر بمعالجة العديد من المشكلات والقضايا الثقافية التى تتراوح ما بين الحركات العقلية فى علم النفس والتحليل النفسى حيث بلور قضيته الأساسية القائلة بأن الانتشار الثقافى ليس عملية ميكانيكية أو عمياء ولكنه يعتمد أساسا على مدى ملاءمة الثقافات للحاجات الأساسية فى المجتمع الذى يستقبلها. وأبرز فى ذلك الكثير من قضايا الانتشار الثقافى وتتبع هجرة السمات والعناصر الثقافية لإعادة تركيب ماضيها ثانية وكان يركز فى ذلك على المشابهات الثقافية التى توجد فى كثير من النظم الاقتصادية والدينية مؤكدا على مبدأ الامكانات المحدودة Limited Posibilties الذى تتحد معه هجرة هذه السمات والعناصر الثقافية وانتشارها.

من ناحية أخرى مثلت العقلية البدائية موضوعا رئيسيا ضمن اهتماماته ولكن من خلال مدخل معين يدور حول الاكتشافات والاختراعات والتحسينات الاقتصادية والتكفية التى تلجأ إليها المجتمعات البدائية وناقش فى هذا قضية التفكير المنطقى لدى البدائيين منتهيا إلى أنه ليس صحيحا بالمرة أن نعزو إلى العقلية البدائية دورا سلبيا وقرر فى هذا أن لكل مجتمع بدائى طرائقه الخاصة فى التعامل مع البيئة والحفاظ على المهارات والمعلومات التى تؤسس على التجربة إنما كل المشكلة تنحصر فيما إذا كانت هذه المعارف تمثل نوعا من العلم كما يعرفه المجتمع المتقدم.

ومع أنه قـام ببـعض الدراسـات الحـقليـة بين قـبـائل الايروكـوا Iroquois فى أمـريكا الشـمـاليـة إلا أنه اهتم اهتمـامـا خـاصة بدراسـة المشكلات النظرية فـدرس الطوطمية التى تصور أنها مؤسسـة على علاقة رمزية صوفية غامضة نـافيا وجود طبقة أو فئـة واحدة للممارسات الطوطمية. وربما كان من أهم مواقفه ذلك الذى عبـر عنه بأن العوامل التصورية للشعوب الأمية لا تختلف اختلافا جوهريًا عن عالم الإنسان الحـديث الأمـر الذى ناقـشه باستـفـاضـة فى كـتابين رئيـسيين من مؤلـفـاته أولهـما: «التاريخ وعلم النفس والثـقـافة (١٩٣٣) وكتابه الثانى «الانثـربولوجيا» الذى صدر فى عام ١٩٣٧ قبل وفاته بثلاثة أعوام (١٩٤٠) فى بورتلاند بأمريكا.

★ ★ ★

اشتهر عالم الأنثربولوجيا واللغويات الأمريكى جوزيف هارولد جرينبرج بتصنيفه الشهير للغات واللهجات الأفريقية وهو التصنيف الذى لقى قبولا عالميًا وبخاصة بعدما أوضح فيه الكثير من الانتقادات التى وجهها لبعض التصنيفات اللغوية التى قال بها بعض العلماء وبالذات التصنيفات الحديثة نسبيا التى ارتكزت على جهود علماء مرموقين مثل كارل ماينهوف Meinhof ووسترمان Westermann وكشف عن أوجه الضعف فى كثير من الأدلة التى أقيمت على الظن والافتراض دون اللجوء إلى الشواهد الواقعية والتاريخية.

وقد ولد جرينبرج عام ١٩١٥ فى بروكلين بأمريكا واكتسب شهرته كمتخصص فى الثقافة واللغات الأفريقية وبخاصة فى الخصائص والسمات أو ما يعرف بالعموديات اللغوية التى تشارك فيها عدد من اللغات التى تنتشر فى عدد من البيئات أو المناطق اللغوية الواسعة. ولقد حصل جرينبرج على درجة الدكتوراه فى الانثربولوجيا من جامعة نورث وسترن فى عام ١٩٤٠ ولكنه قام بدراسة اثنوجرافية فى الهوسا Hausa فى شمال نيجيريا (١٩٣٨ - ١٩٣٩) تمخضت عن واحد من أعمق كتبه دار حول «أثر الإسلام فى عقيدة سودانية» حيث ظل الإسلام يمارس دورًا هائلا فى صوغ أنماط الحياة عند الشعوب الزنجية فى السودان ومعظم أفريقيا الشرقية، ثم قام بالتدريس فى جامعتى نورث وسترن ومينسوتا وصار أستاذا للانثربولوجيا واللغويات فى جامعة ستانفورد (١٩٦٢) وكان زميلا فى مركز الدراسات المتقدمة للعلوم السلوكية التابع لهذه الجامعة وأصبح محاضرًا متميزًا أول (١٩٧٠) فى الرابطة الانثربولوجية الأمريكية.

وليس من شك فى أن أفريقيا تعتبر من الناحية اللغوية من أشد مناطق العالم تعقيدًا وربما لا يضاهيها فى هذه الناحية إلا سكان أمريكا الجنوبية الأصليون وسكان غينيا الجديدة ولهذا فقد كان جوهر بحوثه يتركز فى قضية أساسية أصبحت شغله الشاغل وهى البحث عن العلاقات المشتركة والعامة فى اللغات التى ذهبت الدراسات والبحوث إلى أنها تقدر فى أفريقيا بأكثر من ثمانمائة لغة وإن كان

البعض قد قفز بهذا الرقم إلى ١٥٠٠ لغة ولهجة الأمر الذى يثير التساؤل عن كيفية ظهور ذلك الكل المعقد من التنوع اللغوى فى القارة وعن السمات والخصائص التى تشارك أو تتمايز بها هذه اللغات ودور الاتصال أو الاحتكاك المباشر بين شعوب القارة وغيرها من الشعوب.

فى ضوء دراساته التى أجراها فى نيجيريا طور جرينبرج تصنيفا حديثا للغات الأفريقية وقد نشر أولا فى سلسلة من المقالات فى جورنال ساوث وسترن للأنثربولوجيا ولكنه صدر بعد ذلك فى كتاب باسم «دراسات فى التصنيف اللغوى بأفريقيا» Studies in African Linguistic Classification وهو كتاب يعتبر بمثابة عمله الرئيسى الذى بنى شهرته حيث أقام تصنيفه على أساس وجهتى نظر أساسيتين الأولى النظر إلى الفصائل اللغوية من ناحية التطور والارتقاء Genetic والثانية من حيث الاتفاق فى الأصول والقواعد والبناء Typological وذهب إلى أن هناك خمس أسر لغوية متميزة وهى النيجر - الكردوفانية Niger-kordofanism، الأفروآسيوية ,Afroasiatic الصحراوية النيلية Nilo-Saharan، والماكروسودانية والكليك التى تشمل قبائل الهتنتوت والفئات السكانية المختلفة من قبائل البوشمن المنتشرة فى جنوب غرب أفريقيا وبعض المناطق الأخرى فى شرق أفريقيا أيضا. وذلك بخلاف سبع فئات أو سبع لغات فردية فى مناطق صغيرة نسبيا من بينها السونجهاى، والمابان، والفور، والكومان حيث يعتبر مجموع الأسر اللغوية ١٢ لغة تشغل أكثر من ٩٨٪ من مجموع المساحة والسكان.

وقد صدرت لجرينبرج العديد من المقالات والمؤلفات المتخصصة فى اللغات والثقافات الأفريقية. ولا يتسع المجال هنا للتعرض لمقالاته التى كتبها فى اللغويات النظرية وإن كان لابد من ذكر كتابه فى هذا المجال المعنون «الانثربولوجيا اللغوية» Anthropological Linguistics (١٩٦٨) وكتابه الهام الذى أصدره بعد ذلك تحت عنوان «اللغة والثقافة والاتصال» Language, Culture and Communication (١٩٧١) وإن كان قد صدر له قبل هذا ببضعة أعوام كتابان آخران عن لغات أفريقيا الأول بعنوان «لغات أفريقيا» The Languages of Africa (١٩٦٣) والثانى بعنوان «عموميات اللغة» Uiniversals of Language وصدر فى العام نفسه ثم كتابه الضخم المعنون «عموميات اللغة الإنسانية» Universals of Human Language (١٩٧٨) فى أربعة مجلدات كاملة.

وعموما فقد تمكن جرينبرج فى هذه الدراسات والبحوث من التوصل إلى بعض النتائج الهامة حيث دلل على فساد بعض الفرضيات القديمة التى تذهب (ماينهوف) إلى وجود تعاقب فى أنواع اللغات بدلا من القول بما تؤكده البحوث من تداخل واختلاط كثير من الظواهر اللغوية الدالة على وجود روابط تاريخية حقيقية. منتهيا إلى أن اللغات الأفريقية تشترك - بالرغم من تعددها وتنوعها - فى بعض الخصائص الأساسية التى تقوم وراء التعقيد الذى يحيط بنشأتها وأصولها. والأهم من ذلك أن هذه اللغات تنسجم بشكل ملحوظ مع الجوانب الأخرى من الثقافة الأفريقية. وكما يقول هو نفسه أنه بالرغم من أن المنظر اللغوى الشامل كاف فى ذاته لأن يكشف عن مدى تفرع الظاهرة اللغوية وانشعابها فمن الصعب القول بأن كل هذا يتم بطريقة عشوائية مما يعنى أنه يوجد بالفعل وراء هذه (البرقشة) أو هذه الألوان التى تتكشف لنا الظاهرة اللغوية من خلالها نوع من النظام والترتيب والمبادئ الأساسية التى تحدد شكل وطبيعة مثل هذا الاتساق المطلوب للوفاء بغايات الإنسان وحاجاته وهو الاتجاه الذى تأدى بالعلماء إلى أن يؤكدوا على حقيقة أن اللغات المختلفة أيا كان المدى الذى تفرعت به لابد وأن تكون قد تفرعت أساسا عن بعض أصول محددة هو ما أطلقوا عليها اسم الفصائل أو العائلات العامة الكبرى التى اعتبرت الأصل الأول لكل ما هنالك من لغات ولهجات.

★ ★ ★

تلقى تعليمه وتدرب كباحث أنثربولوجى كما تخرج فى مدرسة لندن للاقتصاد والعلوم السياسية . ثم قام بالتدريس فى هذه المدرسة وأيضا فى جامعة هارفارد وتخصص فى أنثربولوجيا المجتمعات الأفريقية حيث عمل أستاذا فى مدرسة الدراسات الأفريقية والشرقية التابعة لجامعة لندن . بالإضافة إلى عمله كخبير متميز وباحث اجتماعى لحكومة تتجانيقا علاوة على منصبه كأستاذ للأنثربولوجيا فى جامعة بوسطن حيث شارك فى أحد مشاريعها الضخمة المتعلقة بالدراسات الأفريقية.

ولا ترجع شهرة جليفر إلى مناصبه العلمية والأكاديمية ولكنها ترجع بالدرجة الأولى إلى بحوثه ودراساته الميدانية التى أجراها فى أجزاء ومناطق مختلفة فى شرق ووسط أفريقيا منذ عام ١٩٤٨ وبخاصة فى أوغندا وتتزانيا وكينيا اللتين درس فيهما مختلف القضايا المتعلقة بوسائل وأساليب فض المنازعات إضافة إلى مشكلات التوطين والإقامة ومشكلات الهجرة العمالية وتتجانيقا بالذات وكلها دراسات حقلية تطلبت منه دراسة وتحليل البناءات الاجتماعية للمجتمعات التى عمل فيها والوقوف على طبيعة العلاقات الاجتماعية وصور وأنماط التفاعل الاجتماعى بين الأفراد والجماعات وبين المجتمعات بعضها وبعض وما قد يقوم بينها جميعا من علاقات المودة والتعاون أو التنابذ والشقاق والعدوان والدور الذى تلعبه القرابة بصفة خاصة فى المصالحات والمفاوضات لإذابة الصراعات حفاظا على وحدة القبيلة (أو الوحدة القرابية عموما) وعلى تماسكها الاجتماعى خاصة مع غيبة النظم القضائية والمحاكم والقانون بمعناها الحديث.

وهناك بعض المفهومات التى لها أهمية خاصة عند جليفر منها مفهوم القبيلة ومفهوم القبلية اللذين يختلفان عنده عما نجده عند إيفانز بريتشارد مثلا أو عند جلوكمان. وهنا اهتم اهتماما ملحوظا بما يوجد فى أوغندا بالذات ويطلق عليه رابطة الصداقة Bond of Friendship التى تجمع بين شخصين فى ضوء وضعيات وشروط معينة كأن يكونا من نفس الجنس والسن ومن حيث التكافؤ الاجتماعى والاقتصادى وبذلك تتوثق علاقة الصداقة التى تعبر عن ذاتها فيما يقوم بين الأفراد

من اعتماد متبادل وتعاون وتساند وخصوصا فى حالات الاعتداء على الآخرين وهو ما قد يتم وفق بعض الشعائر والطقوس فى كثير من الأحيان.

وربما يعتبر جليفر من أغزر الأنثروبولوجيين انتاجا وتأليفا فقد كتب عددا هائلا من المقالات (خاصة فى القانون ووسائل فض المنازعات). فى المجالات الأنثريولوجية والمجالات القانونية من بينها «مسح مبدئى عن التركانا» A Pre-liminary Survey of the Turkane (١٩٥١) عن قبيلة «التركانا» فى شمال كينيا. وكذلك مقالته الشهيرة عن «المفاوضات كنموذج لفض المنازعات : نحو نموذج عام» Negotation as a Model of Dispute Settlement: Towards a General Model (١٩٧٣) هذا طبعا بخلاف كتبه الرئيسية التى ألفها سواء بمفرده أو بالاشتراك ومن بينها «قطعان العائلة» Th Family Herds (١٩٥٥) وفى العام نفسه «الهجرة العمالية فى اقتصاد ريفى» Labor Migration in a Rural Economy (١٩٥٥) و«الضبط الاجتماعى فى مجتمع أفريقى» Social Control in an African Society علاوة على كتابه الذى ألفه بالاشتراك مع زوجته باميلا «النيلوجامية الوسطى» The Central Nilo-Hamites (١٩٥٣) وأيضا كتابه «حالة العائلة فى أفريقيا» The Family State in Africa (ألفه مع جراى Gray) ثم كتاب آخر عن «التقليد والتحول فى شرق أفريقيا ؛ دراسة للعنصر القبلى فى المنطقة الحديثة» Tradition and Transition in East Africa : Studies of Tribal Element in the Modern Era (١٩٦٩).

★ ★ ★

جيرفيتش، جورج (١٨٩٦) GURVITCH, George

ولد عالم الاجتماع الفرنسى جورج جيرفيتش فى روسيا عام ١٨٩٦ وعاش فترة فى ألمانيا وتشيكوسلوفاكيا والولايات المتحدة الأمريكية واستقر أخيرا بعد الحرب العالمية الثانية فى فرنسا وظل يكتب بالفرنسية فى مختلف ميادين علم الاجتماع حتى احتسب انتاجه العلمى لفرنسا وترجمت مؤلفاته وكتاباته إلى العديد من اللغات من بينها الإنجليزية والألمانية والهولندية والإيطالية والعربية.

ويعتبر جيرفيتش واحدا من أبرز علماء الاجتماع الفلسفى الفرنسى اشتهر بتمييزه بين الدراسة الاجتماعية للجماعات الصغيرة (الميكروسوسيولوجيا) والدراسة الاجتماعية للجماعات الكبيرة أو الماكروسوسيولوجيا ومن خلال هذين الإطارين تعرض جيرفيتش لكل موضوعات علم الاجتماع تقريبا من خلال خلفيته النظرية والفلسفية التى أظهرت - على الأقل فى بعض مراحله - مدى تأثره بمدرسة الظواهر وهو التأثر الذى سينفيه فى مرحلة متقدمة من حياته.

وربما كان مفهوم الظاهرة الاجتماعية الكلية الذى استعاره من مارسيل موس Mauss أهم المفهومات التى قدمها جيرفيتش ويقصد به الصورة الكلية للمجتمع كما يبدو فى الخبرة المباشرة الأمر الذى يكشف عن ميله للنزعة التى أطلق عليها النزعة فوق الأمبريقية أو المغالية فى الأمبريقية تنصلا من ارتباطه الأولى بالظاهراتية الذى كان قد عبر عنه فى كتاباته المبكرة. كما يعتبر مفهوم البناء الاجتماعى الذى كتب فيه بشكل مطول من تلك المفهومات الرئيسية وكذلك مفهوم الواقع الاجتماعى المباشر أو العقل الجمعى الذى يقترب به كثيرا مما نجده عند دوركايم .

وباعتباره فى مقدمة الفلاسفة الاجتماعيين الذين تربوا فى أقسام الفلسفة بالسربون فقد اهتم كثيرا ببحث العلاقة بين علم الاجتماع المعرفى ونظرية المعرفة حيث بين إمكانية التعاون بينهما مهاجما بذلك القائلين برفض علم الاجتماع المعرفى لأنه يقوم على القول بوجود معرفة جمعية، وقد مكنه اهتمامه بهذه القضية من أن يقدم مجموعة دراسات مونوجرافية عن سان سيمون وأوجست كونت وبرودون. والأهم من ذلك توجيهه إلى دراسة التغير الاجتماعى والثقافى وكذلك مسائل التدرج الاجتماعى مما كان له أثره على علماء الاجتماع الفرنسيين فى كندا.

ولأن جيرفيتش كان يؤمن بأنه لا يوجد شيء ثابت فى المجتمع الذى يتصف بالتغير وبالحركة الدائمة فقد مثل علم اجتماع التنمية والدور الذى يقوم به محورا أساسيا فى تفكيره وكان لهذا تأثيره البالغ فى الكثيرين ممن اهتموا بالتنمية وبخاصة جورج بالانديز Balandier وشارل بتلهايم Betteleim وآلان ثورين Touraine والفريد سوفى Sauvy وكلود ليفى ستروس Strauss ولهذا فقد كان من بين اهتماماته وظيفة الحكم المحلى والديمقراطية كمظهرين من مظاهر المشكلات الاجتماعية حيث أثار فى كتابه Democracy as a Sociological Problem الكثير من التساؤلات التى ألقت مزيدا من الضوء على الموضوع. وهذه صفة تميزت بها سائر كتبه ومؤلفاته وبخاصة كتابه «الجدل وعلم الاجتماع» Dialectique et Sociologie (١٩٦٢) و«الدور الحقيقى لعلم الاجتماع» La Vocation Actuelle de la Sociologie (١٩٦٨) ومقالته المطولة التى كتبها عن «مفهوم البناء الاجتماعى» Le Concept de la Structure Sociale (١٩٥٥) وكذلك فى بعض كتاباته المبكرة التى برز فيها اهتمامه بالجوانب الأخلاقية مثل Morale Theorique et Science des Moeurs (١٩٤٨) وكتابه عن «التكنوقراطية والتصنيع» Industrialisation et Technocratie (١٩٤٩).

وعلى العموم فإن آراء جورج جيرفيتش تعكس إنكارا واضحا لإمكانية التوصل إلى قوانين علية أو تطورية أو وظيفية فى علم الاجتماع على اعتقاد منه بأنه لا يوجد فى العلم ما يعرف بالحتمية أما إذا كانت هناك حتمية فإنها لا توجد إلا من خلال القوانين الإحصائية فحسب وبعض الارتباطات الاحتمالية.

★ ★ ★

-H-

هابرماس، يورجن (١٩٢٩- HABERMAS, JÜRGEN

تعدت آراؤه وأفكاره الحدود الحضارية والإقليمية لوطنه ألمانيا وأصبح واحدا من أبرز الفلاسفة وعلماء الاجتماع المعاصرين فى أوربا كلها. وباعتباره أحد الورثة الشرعيين لتراث مدرسة فرانكفورت فإن شهرته ترجع إلى خبرة أكثر من ثلاثين عاما قضاها فى مناقشة مختلف القضايا المعاصرة فكتب فى المجتمع وفى المعرفة والتاريخ والتكنولوجيا وعلم النفس والاتصال والاجتماع وفى موضوعات أخرى كثيرة بالإضافة إلى دوره فى الحياة العامة لوطنه وهو يمر بمختلف مراحل تطوره السياسى والاجتماعى والثقافى بعامة.

ولد يورجن هابرماس فى عام ١٩٢٩ ونال تعليمه فى جامعتى توبنجن Tobingen وفرانكفورت Frankfurt وهى مرحلة كانت بمثابة حجر الزاوية فى تحديد اتجاهاته على اعتبار أن اهتمامه بكل من الماركسية والفرويدية أخذ فى التشكل وفى التبلور الأمر الذى أدى به إلى رؤاه ومواقفه الخاصة التى لم تكن فى كثير من المواضع تتفق تماما مع المسلمات التقليدية التى كان يأخذ بها أيا من الاتجاهين وبخاصة بعدما زاول التدريس فى كل من جامعة فرانكفورت وجامعة هايدلبرج Heidelberg وتولى إدارة معهد ماكس بلانك فى الفترة من ١٩٧١ - ١٩٨٢ التى ربما كانت أخصب فترات عطائه العلمى.

وليس من شك فى أن هابرماس يعتبر من أبرز أعضاء مدرسة فرانكفورت ولكن من المهم القول مع ذلك أنه يختلف كثيرا عن الجيل الأول من رواد النظرية النقدية سواء من حيث المنطلقات أو الغايات التى سعى إلى تحقيقها فباعتباره فيلسوفا وجد متعة كبيرة فى تطوير النظرية الاجتماعية ويوجه اهتماما خاصا إلى علم اجتماع المعرفة بمعنى أنه حول اهتمامه لنقل وتحويل النظرية النقدية من اتجاهها السياسى لتصبح نظرية فى المعرفة الاجتماعية عن طريق التعرف على شروط المعرفة الممكنة والتعرف على كيفية نقد المعرفة ذاتها من خلال الإحاطة

بالبناء وبالمحتوى. وهى عملية استدعت الاعتماد كثيرا على الاتجاه السيكولوجى والتحليل النفسى على وجه الخصوص.

فى أوائل الستينيات من القرن الماضى نشر أول كتبه الهامة التى حددت ملامح نظرته النقدية تحت عنوان «التحول البنائى للحياة (المحيط) العام» The Structural Transformation of the Puplic Sphere (١٩٦٢) حيث ناقش دور المثقفين الذى أكد ضرورة قيامه على قدر من الحرية وسهولة الاتصال بالجماهير. ونزولا على هذه الغاية العملية سعى إلى إضفاء نوع من المشروعية على الفكر الذرائعى فى نسقه النظرى ذاهبا إلى أن العقل الذرائعى له دور حيوى وأصيل مستخدما التحليل النفسى لتوضيح هذا باعتبار التحليل النفسى نموذجا للعلم المنقذ أو (المخلص) ويقصد به ذلك العلم الذى لا يؤدى فقط إلى إنتاج المعرفة ولكنه يمكن الإنسان أيضا من أن يصبح على وعى بطبيعة المشكلات وأسبابها وكيفية مواجهتها.

كتابه الهام الثانى هو «المعرفة والمصالح الإنسانية» Knowledge and Human Interest (١٩٦٨) وقارن فيه التحليل النفسى بالنظرية الاجتماعية مثيرا فى ذلك العديد من المسائل المتعلقة بالمنهجية وبالتصورات والمفاهيم الأساسية. وفى داخل هذا الإطار بين هابرماس أن هناك ثلاث مصالح معرفية يشترك فيها البشر أجمعين هى المصالح الفنية (تتعلق بمعرفة البيئةوالسيطرة عليها وتؤدى إلى ظهور العلوم الأمبريقية وفى مقدمتها (العلوم الطبيعية) والمصالح العملية (تتعلق بالقدرة على الفهم المتبادل وتؤدى إلى ظهور العلوم التأويلية) وأخيرا المصالح التحريرية (تتعلق بالرغبة فى التخلص من كل معوقات الفهم والاتصال وتؤدى إلى ظهور العلوم النقدية وفى مقدمتها التحليل النفسى) ومن الواضح أن هذا التصور تكمن وراءه بعض الرؤى الماركسية التقليدية فى الوجود الإنسانى وإن كان لا يمكن اتهامه بالحتمية الاقتصادية بمفهومها الماركسى القديم بسبب ما يحويه التصور من إشارات وتلميحات رمزية ولأن هابرماس قد اعتقد أيضًا أن هذه الحتمية إنما ترتبط بالمراحل المبكرة من تطور الرأسمالية وهى مرحلة تجاوزتها المجتمعات الرأسمالية الحالية بكثير وفى أكثر من اتجاه وفى عدة مستويات.

أما كتابه المهم الثالث والذى يمكن النظر إليه على أنه الإطار الأشمل لنظريته الاجتماعية فهو المعنون «نظرية الفعل الاتصالى» The Theory of Communicative

Action (١٩٨١) حيث سعت نظريته النقدية إلى خلق وتوليد وعى جديد بالطبيعة المزدوجة للوعى أو الرشد باعتباره رشدا ذرائعيا واتصاليا فى آن واحد. وهو يقصد بالفعل الاتصالى الكلام والحديث الرشيد الذى يتجه إلى إحداث نوع من الاتفاق ومن ثم فهو يعتبر بمثابة الشكل النهائى للسلوك الاجتماعى.

وقد يكون من الصعب الإحاطة بكل اهتمامات هابرماس والجوانب المختلفة لتفكيره ما لم ننتبه إلى ما طرأ على تفكيره من تحولات وبخاصة فى السنوات الأخيرة وإذا كان فى هذه الكتب التى عرضنا لها حتى الآن كان همه فى مواضع كثيرة منها منصبا على نقده اللاذع للوعى التكنوقراطى الذى يفرض نفسه بشدة على العالم الواقعى للمجتمعات الغربية عموما فقد اتسع نطاق هذا النقد خلال العقدين الأخيرين بالذات ليشمل النواحى الثقافية على اتساعها. ففى منتصف الثمانينيات انخرط فى الانتقادات التى وجهت إلى الحداثة ولما بعد الحداثة إذ صدر مؤلفه المعنون «حوار فلسفى حول الحداثة» The Philosopical Discours of Modernity (١٩٨٥) وأتبعه بأعوام أربعة بكتابه المعنون «النزعة المحافظة الجديدة : نقد ثقافى ونقاش تاريخى» The New Conservatism: Cultural Criticism and Historian's Debate (١٩٨٩) وهما كتابان كانا بمثابة مدخل واسع ليطل منه على قضايا معاصرة عاشتها ألمانيا والعالم بأكمله خلال هذين العقدين وما زالت تأثيراتهما باقية إلى اليوم. حيث ظهر كتابه «عندما سقط الحائط» When the Wall Came Down (١٩٩١) الذى احتوى على عدد من المقالات السياسية والثقافية عن سور برلين والوضعيات السوسيواقتصادية داخل وخارج ألمانيا التى نشأت على أثر انهيار حائط برلين وظهور ألمانيا فى ثوبها الجديد.

وأخيرا هناك أيضا كتابه «الماضى كمستقبل» The Past as Future (١٩٩٤) وفيه اهتمام مباشر بمختلف القضايا والظروف التى كانت ألمانيا طرفا فيها بالإضافة إلى بعض الأحداث العالمية ورأيه فيها مثل حرب الخليج وسائر الضغوط الاقتصادية والسياسية التى تتعرض لها أنحاء عديدة فى العالم والتى لا فكاك منها إلا بمزيد من الوعى والإدراك النقديين لمختلف الأوضاع ومسبباتها .

★ ★ ★

على مدى أكثر من ثلاثين عاما كان الفريد كورت هادون المساند أو ربما الممثل الوحيد للأنثربولوجيا البريطانية فى كامبريدج ولهذا فلا يعتبر غريبا أن اعتبر واحداً من الرواد الذين يرجع إليهم الفضل فى تأسيس هذا العلم فى بريطانيا فى العصر الحديث وبالرغم حتى من حقيقة أنه لم يكن قد تخصص أصلاً فى الأنثروبولوجيا ولكنه درس فى بداية حياته التشريح المقارن وعلم الحيوان بل وقام بتدريس هذا العلم الأخير فى الكلية الملكية للعلوم فى دبلن منذ أن عين استاذا لعلم الحيوان بها فى عام ١٨٨٠.

ولد هادون فى عام ١٨٥٥ في لندن وتوفى وهو فى الخامسة والثمانين من عمره فى إبريل عام ١٩٤٠ ونجح خلال هذه السنوات فى أن يحقق للأنثربولوجيا مكانتها العالية بين العلوم التى تعتمد على الملاحظة لا بسبب مؤلفاته وأعماله العلمية فحسب ولكن بسبب تدريسه للعلم والجهد الخارق الذى بذله للتعريف به والعمل على إرساء قواعده حيث درس لعدة أجيال من الشباب الذى برز منهم علماء متميزون من بينهم رادكليف براون الذى درس علم الحيوان على يديه.

ويبدو أن دراسات هادون المبكرة لعلم التشريح وعلم الحيوان كانت السبب فى تحول اهتمامه إلى دراسة الإنسان ، فبعد أن تلقى هذه العلوم فى كريست كوليج Christ College بكامبريدج وهى العلوم التى يشهد الكثيرون بتفوقه فيها وأصدر حولها أكثر من كتاب من بينها كتابه الأول بعنوان «مقدمة فى دراسة علم الأجنة» In-troduction to the Study of Embryology (١٨٨٧) وهو كتاب اتبعه بعدة دراسات وبحوث فى علم الأحياء البحرية Marine Biology أخذ يمارس فى دراسته لهذه النواحى المتخصصة بين ما يلاحظه فى عالم الحيوان وملاحظاته لعالم الإنسان وكان ذلك بمثابة بداية الطريق الذى سار فيه بقية حياته.

ويمكن القول بأن رحلته التى قام بها فى ١٨٨٨ إلى مضايق توريس Torres Strait فى ميلانيزيا لدراسة الحيوانات البحرية هى التى مثلت المنعطف الحقيقى فى اتجاهاته إذ إنه لم يقصر اهتمامه على دراسة هذه النواحى ولكنه تحول أيضا

إلى الاهتمام بدراسة الشعوب والجماعات المحلية فى ميلانيزيا وهو اهتمام تحول على أى الأحوال إلى شغف بدراسة الإنسان وكان بذلك من أوائل العلماء الذين شغلتهم مسألة تصنيف الأجناس البشرية إذ وضع تصنيفًا على أساس شكل وطول الجمجمة ولون البشرة وطول القامة فهناك أجناس طويلة الرأس وأخرى رؤوسهم متوسطة وغيرها عريضة والنمط الأول كما الاستراليين وشعوب البحر المتوسط والثانى فى شمال أوربا والنورديين والثالث بين الأسيويين.

والواقع أنه كان لهذه الرحلة نتائجها الحاسمة فمنذ عودته إلى كامبريدج عام ١٨٩٣ أخذ يحاضر فى الأنثربولوجيا الفيزيقية. ولم تمض خمس سنوات حتى كان ينظم عام ١٨٩٨ بعثة جامعة كامبريدج الأنثربولوجية التى قادها إلى جزر ومضايق توريس وغينيا الجديدة New Guinea وساراواك Sarawak وهى الدراسات التى استخدم فيها بنجاح بعض التكنيكات الأساسية فى الدراسات الأنثربولوجية الحلقية الحديثة ومن بينها الطريقة الجينالوجية المستخدمة فى دراسة الأنساب وتتبعها .

وبالرغم من أن هذه البعثة شارك فيها عدد من العلماء من أمثال ريفرز وسلجمان وسيدنى راى وغيرهم فقد ارتبطت أساسا باسم هادون الذى أشرف على تنظيمها وترأسها وقد عرفت جامعة كامبريدج والكلية التي تخرج فيها (كريست كوليج) فضل هادون وما قدمه للأنثربولوجيا من خدمات ففتحت كامبريدج قاعاتها لمحاضراته ومنحته كليته زمالتها فى عام ١٩٠١ وعندما أنشئ مجلس الدراسات الأنثربولوجيا فى كامبريدج عام ١٩٠٤ أصبح هادون فى الفترة من ١٩٠٦ إلى عام ١٩٢٦ قارئا متفرغا للدراسات الأثنولوجية.

وقد يكون من الصعب حقيقة التعرض هنا لمؤلفاته وكتاباته التى تجاوزت الستمائة والتى تمتلئ بكم هائل من المعلومات والمادة الاثنوجرافية التى نجح فى جمعها من الشعوب البدائية متأثرا فى ذلك بكتابات وبمنهجية أدولف باستيمان الذى كان يطلق تسمية الشعوب الطبيعية فى مقابل الشعوب المتمدينة أو المثقفة وينادى بضرورة جمع أكبر قدر ممكن من المعلومات حتى يمكن تسجيلها قبل اندثارها.

وقد ظهر كتابه «التطور فى الفن» Evolution in Art (١٨٩٥) و«صائدو الرؤوس البيض والسود والقمحية» Head Hunters, Black, White and Brown

(١٩٠١) و«غـرائب الشـعـوب» Wanderings of Peoples (١٩١١) و«نحن الأوربيين» We Europeans الذى قـدمـه مع السيـر جـوليـان سـوريل هكسلى Huxley . أمـا مؤلفاته الأكثـر حداثة فتشتمل على «تاريخ الأنثربولوجيا» History of Anthro- pology الذى ظهر فى عام ١٩٣٤ ويعتبر من أكثر كتبه المتخصصة دقة ووضوحًا. ومن قبله بعشر سنوات كتابه «أجناس البشر وتوزعاتهم» The Races of Man and Their Distrbution (١٩٢٤) معتمدا فى تناوله على الاتجاه التطورى الذى يفسر الانتقال من البسيط إلى المركب ومن الأدنى إلى الأعلى والأرقى.

★ ★ ★

مؤرخ أنثربولوجى ورائد من رواد النظرية الحديثة اكتسب شهرته نتيجة لأعماله ودراساته الميدانية التى أجراها فى جزر باهيا Bahia وبعض الأقاليم البرازيلية الأخرى وأيضًا فى موزامبيق Mozambique وكان لمادته الاثنوجرافية التى جمعها عن صور وأشكال المواد الثقافية أكبر الأثر فى مفهوم الثقافة بوجه خاص.

وقد ولد هاريس عام ١٩٢٧ ونال درجة الدكتوراه من جامعة كولومبيا عام ١٩٥٣ حيث قام بتدريس الأنثربولوجيا وعمل مستشارا فنيا للحكومة البرازيلية بوزارة التربية والتعليم . وإن كانت أعماله وكتاباته قد أثارت الكثير من الجدل العلمى الذى ما زالت أصداؤه تتردد حتى الآن نتيجة لموقفه الخاص من العلوم الاجتماعية التى كان ينظر إلى وظيفتها نظرة أشبه بعملية التكيف Adaption التى توجد فى العالم العضوي وهى نظرة قادته إلى القيام بالعديد من الدراسات المقارنة فى الثقافات البدائية وفى الاقتصاديات الأوربية فى العصور الوسطى حيث كشف عن وجود نمطين متمايزين هما نظام الإقطاع Feudalism ونظام العمل اليدوى الذى تلعب فيه الملكية دورا كبيرا وهما نمطان ذهب إلى أن اقتصادياتهما لم تكن تختلف كثيرا عن الاقتصاديات التى تسود المناطق الحالية.

ومن ناحية أخرى فقد اهتم أيضا بدراسة عوامل الهجرة الثقافية والسياسية الأمر الذى أثار بدوره مناقشات طويلة خاصة بالنتائج التى أسفرت عنها هذه الدراسات والتى اعتمد فيها على المنهج العلمى الجديد Ethnoscientific على النحو الذى ظهر فى دراسة له أجراها فى التونجا Thonga فى موزمبيق التى تعرض فيها لنظم العمل ونظام السُخرة ونظام الأجور التى يجرى ممارستها على الموظفين وغيرهم من العاملين. وهو ما عبر عنه فى عدد من كتبه ومؤلفاته التى ما زالت تلقى الكثير من التقدير إلى جانب الكثير أيضا من الانتقاد والمعارضة.

ويعتبر كتابه «ظهور النظرية الأنثربولوجية» The Rise of Anthropological Theory (١٩٦٨) فى مقدمة كتاباته التى تناول فيها مفهومه لعلم الاجتماع وللنظرية الأنثربولوجية بوجه خاص من خلال استعراضه ومناقشته لمختلف المراحل التى تطور

العلم من خلالها ارتباطا بأسماء عدد كبير من الآباء المؤسسين الأوائل. وإن كانت فترة السبعينيات قد شهدت له أيضا بعض الكتب الهامة من بينها كتاب «الثقافة والناس والطبيعة» Culture, People and Nature (١٩٧٥) وكذلك كتابه المعنون «الكانيبالزم والملوك: أصول الثقافات» Cannibals and Kings: The Origins of Cultures (١٩٧٧) ثم كتابه «المواد الثقافية : النضال لأجل علم للثقافة» Cultural Materialism: The Struggle for a Science of Culture (١٩٧٩) ثم كتابه الذى يعتبر من وجهة نظر الكثيرين أهم كتبه وأكثرها وضوحًا واعتمادا على المادة الهائلة التى بين يديه وهو «الأنثربولوجيا الثقافية» Cultural Anthropology (١٩٨٣) وهو من أمهات الكتب التى ما زالت تلقى رواجا إلى اليوم خاصة وأنه فى هذا الكتاب قد عاد ينظر بشىء من الحرص الذى لا يخلو من النقد إلى «المنهج العلمى الجديد» الذي يهدف أساسا إلى فهم الجوانب المكونة لثقافات الشعوب كما تتصور الشعوب نفسها هذه الجوانب. وبالرغم من أن هذا يبدو صحيحا فى مجمله فإن ما انتقده هو ما يزعمه المنهج من تأكيد على القواعد والأنماط الثقافية الأمر الذى رأى أنه يبعد الانتباه عن العملية الأكثر أهمية وهى العملية التى تطور الشعوب بها هذه القواعد والأنماط والأحكام الثقافية بطرائق بديلة تساعدها على التكيف مع الظروف المتغيرة. إضافة إلى الطابع المثالى الذى ينطوى هذا المنهج عليه خاصة وهو يدعى أن الانثربولوجى يرى الثقافة بنفس المنظور الذى يراها به المجتمع وهذه مسألة يصعب تحققها واقعيا .

★ ★ ★

يعتبر هرسكوفيتز رائدالدراسات الأفريقية فى أمريكا إذ انصب اهتمامه على دراسة أكثر نواحى الحياة حيوية فى القارة وبخاصة قضايا الفن والتغير الثقافى والعقيدة ومن هنا فيمكن القول بأن جانبا كبيرا من الفضل إنما يرجع إليه فى فتح آفاق أوسع أمام الدراسات الأنثربولوجية التى أخذت تهتم اهتماما خاصا بدراسة الزنوج والنيجرو كمجال جديد للبحث الأنثربولوجى، علاوة على شهرته الرائدة كعالم إنسانى النزعة يتميز بنظرة خاصة للثقافة الأفريقية أقامها فى ضوء مبدأ النسبية الثقافية التى كانت بمثابة نقد للحتمية الأنثربولوجية البريطانية نظرا لما لها من ملامح تمثلت فى التركيز على التنوع الثقافى وإبراز الذاتية بدلا من الأمبريقية البسيطة ، ورفض فكرة تدنى الشعوب غير الغربية والاهتمام بإبراز البعد الإنسانى فى ممارسة البحث والعمل الأنثربولوجى وكلها ساعدت على بلورة النظرية النقدية فى الأنثربولوجيا على ما أكدته دراساته وبحوثه التى أجراها فى جزر الكاريبى وهاييتى وترينيداد وغينيا الهولندية والبرازيل فى إطار الظروف المختلفة التى يعيشها الأفارقة فى هذه المناطق.

ولقد ولد هرسكوفيتز فى بل فوتين Belle Fountaine بولاية أوهايو عام ١٨٩٥ ونال درجته الجامعية الأولى من جامعة شيكاغو (١٩٢٠) ودرجة الماجستير ثم الدكتوراه (١٩٢٣) من جامعة كولومبيا حيث تأثر بالأستاذ فرانز بواس Boas ثم عمل محاضرا فى الأنثربولوجيا فى هارفارد قبلما يذهب فى ١٩٢٧ إلى جامعة نورث وسترن حيث ظل يعمل حتى وفاته عام ١٩٦٣ بعد أن شغل أول كرسى للدراسات الأفريقية فى الولايات المتحدة عام ١٩٦١. كذلك فقد عمل مديرا لبرنامج الدراسات الأفريقية بجامعة نورث وسترن كما كان رئيسا لجمعية الفولكلور الأمريكية ومحررا لمجلة American Anthropologist .

ولقد كتب هرسكوفيتز عددا كبيرا من الكتب والمؤلفات بخلاف مقالاته فى شتى موضوعات الثقافة الأفريقية. وفى معظم هذه الكتابات هاجم هجوما عنيفا الكثير من الرؤى والمواقف التى كانت سائدة فى النصف الأول من القرن العشرين عن الثقافة الأفريقية والأصول التاريخية للأفارقة . ومن بين هذه الكتابات «اسطورة

مـاضى الزنوج» The Myth of Negro Past (١٩٤١) عـارض فيه بشـدة الفـرضـيـة القـائلة بأن أفـريقيـا لابد وأن تتبع النمـوذج الغـربى وأن تبـقى تحت الوصاية المباشـرة للآخرين مـؤكدا بـذلك الشـخصـيـة المسـتقـرة للثقـافـة الأفـريقيـة من نـاحيـة وإمكانات التغيـر الاجـتمـاعى والثقافى على أيدى الأفـارقة أنفسـهم من ناحيـة ثانية حيث اهتم بإبراز الخصـائص المكتسبة والفطرية فى الثقـافة وتطورها اعـتمـادا على التجـارب الذاتيـة للشـعوب ومنتـهيـا إلى أن الاختـلافـات فى تطور الشـعوب الثقـافى كـمـا فى الأفراد يلعب الاكتساب فيها دورا متعاظما .

كذلك ظهرت اهتمامات هيرسكوفيتز باقتصاديات القـارة حيث أصـدر Man and His Work (١٩٤٨) و«الحياة الاقتصـادية للشـعوب البـدائيـة» The Economic Life of Primitive Peoples (١٩٤٠) وهو مـحـاولة لصـيـاغـة المبـادئ الأسـاسـيـة للأنثـربولوجيا الاقتصادية بالإضـافة إلى «الأنثـربولوجيـا الثقـافيـة» (١٩٥٥) و«العـامل البشرى فى أفريقيا المتغيرة The Human Factor in Changing Africa (١٩٦٢).

★ ★ ★

على الرغم من أن القانون كان دائما موضع اهتمام من الانثربولوجيين فقد ظلت الأنثربولوجيا القانونية تعانى لوقت طويل من عيب بارز هو عدم تحررها من القوالب والمصطلحات الفنية التى تمتلئ بها صفحات كتب القانون والفقه القانونى المتخصصة.

ولهذا فإن هويل وهو من أغزر الكتاب الذين كتبوا فى مختلف الدوريات والمجلات الأنثربولوجية والقانونية يعتبر نقطة تحول رئيسية فى هذا المزاج المسيطر بمحاولته تعديل معالجة الأنثربولوجيا للقانون فبدلا من الطريقة التى دأبوا عليها فى دراستهم لقوانين المجتمعات البسيطة من زاوية الفقيه أو المحامى القانونى تغير الحال إلى الاعتماد على النظرة الواقعية للأفراد المحليين من أعضاء الجماعة أو المجتمع البسيط الذي تتم دراسته. وهذه نقلة هامة إذ يبدأ الأنثربولوجي بمشاهدة وتحليل الأفعال والتصرفات الاجتماعية ويسعى من خلالها إلى تحديد شكل ونوع القانون ضمن ما تعيش الجماعة (المجتمع) فى ظله من قوانين وأعراف وهذا فى الحقيقة انعكاس لتأثره بروسكو باوند الذى يعتبر من أقطاب الاتجاه الواقعى في دراسة القانون إذ يتفق معه فى تعريفه للقانون ومن حيث إنه يوجد أيضا فى كل المجتمعات بصرف النظر عن بدائيتها .

وليس من شك فى أن تكوينه العلمى هو الذى ساعد هويل علي تبوأ هذه المكانة التى يحتلها فى ميدان الأنثربولوجيا القانونية فقد حصل على درجة الدكتوراه فى الأنثربولوجيا من جامعة كولومبيا وعمل أستاذا للأنثربولوجيا فى جامعة مينسوتا وكذلك مركز دراسات إيست وسترن كما كان زميلا بمركز الدراسات المتقدمة فى العلوم السلوكية بالإضافة إلى أنه قد تمتع بعضوية مجلس تحرير مجلة «القانون والمجتمع Law and Society ومحررا فى مجلة National Law Form.

ولقد أقام هويل تمييزا فاصلا بين القانون وبين العرف اتساقا فى الحقيقة مع اتجاهه الواقعى إذ رأى أن هناك ثلاثة عناصر أساسية فى القانون تميزه عن قواعد العرف وهى القوة أو القسر، والسلطة الرسمية والقياسية. أما بالنسبة إلى

المجتمع البدائى (الذى استأثر بمعظم اهتمامه) فيعتبر العرف الوجه التقنينى للتقاليد والعادات الجمعية والآداب العامة بل ويرتبط ارتباطا وثيقا بالعديد من الإجراءات الدينية والطقوس السرية والمبادئ الأخلاقية مما يجعل منه وسيلة فذة للضبط الاجتماعى.

ولقد كتب هويل عددا هائلا من الكتب والمؤلفات لعل من أشهرها كتابه المعنون «الإنسان فى العالم البدائى» Man in Primitive World (١٩٤٩) وكتابه «قانون الإنسان البدائى» The Law of Primitive Man (١٩٥٤) وكتابه الذى قدمه فى عام ١٩٦١ بالاشتراك مع جلوكمان بعنوان «تعليق : دور الملك فى العملية القضائية فى باروتسو» Comment: The Role of the king in the Barotse Judical Process. بالإضافة إلى كتابه الهام الذى ألفه بالاشتراك مع ليولن The Cheyenn Way فى عام ١٩٤١ الذى وضح فيه دور الجماعات الخاصة فى القانون مما تتوجب معه دراسة القانون فى داخل الجماعة ذاتها . وللحق فإن هذا الكتاب يعتبر من وجهة نظر كثير من العلماء والباحثين أهم إنجازاته النظرية الحديثة فى الأنثربولوجيا القانونية إذ تخلى فيه عن المداخل التقليدية فى دراسة القانون البدائى. وحيث اهتم بإبراز الاختلافات بين الجزاءات القانونية والجزاءات الأخلاقية فى المجتمعات البدائية . فالقانون هنا (له أسنان تعض) بحسب قوله ويعتبر هذا الكتاب - بالرغم من الكم الهائل من الدراسات التى أجريت فى المجتمعات البسيطة والقبلية - من أضخم الإنجازات فى الميدان وما زال الكثيرون ينظرون إليه على أنه أنموذج يحتذى به فى ميدان البحث لما ينطوى عليه من مواقف ورؤى جديدة كان لها أبعد الأثر فى التخلى عن الدراسات الفقهية مما أفسح المجال أمام العديد من الدراسات النظرية والأثنوجرافية فى مناطق أخرى جديدة لتشكل فى مجموعها التراث الأنثربولوجى الذى يهتم ويبحث مشكلات القانون البدائى وتطوره.

★ ★ ★

مؤرخ أمريكي اكتسبت كتبه ومؤلفاته الشعبية في مختلف المجالات والاتجاهات الاجتماعية والسياسية والثقافية شهرة ذائعة حيث فاز مرتين بجائزة بوليتزر Pulitzer العالمية. ولقد ولد هوفستادر في عام ١٩١٦ في بافالو Buffalo في نيويورك وحصل على درجة الماجستير من جامعة كولومبيا عام ١٩٣٨ ثم الدكتوراه عام ١٩٤٢ وبعدها قام بالتدريس في جامعة ميريلاند في الفترة من ١٩٤٢ إلى ١٩٤٦ ليعود بعدها للتدريس في كولومبيا من ١٩٤٦ إلى ١٩٧٠ حيث قضى بقية أيامه إلى أن توفي في شهر أكتوبر من العام نفسه وهو لم يزل في الرابعة والخمسين من عمره.

ولا شك في أن هوفستادر كان أحد المثقفين القلائل الذين نجحوا في أن يحددوا منذ بداية حياتهم العملية مسار فكرهم بوضوح كبير منطلقا من مشاركته الإيجابية في المناقشات التي يثيرها التفسير التاريخي التي احتدمت في الولايات المتحدة الأمريكية منذ أربعينيات القرن الماضي خاصة فيما يتعلق بأصول الرأسمالية الحديثة التي رأى أنها بدأت بكارل ماركس وتعرضت لمراجعات ماكس فيبر للتفسير الماركسي وهي مناقشات شارك فيها عدد كبير من علماء الاجتماع والمؤرخين

ومنذ البداية تميزت مناقشاته وكتاباته التي قلنا إنها ذائعة الانتشار والرواج بمزية أساسية كانت بمثابة الأساس النظري والمنهجي لكل مواقفه ورؤاه التي سعى بها للتعبير عن تفسيره الخاص لتاريخ أمريكا مستخدما في ذلك الفكر السوسيولوجي والمقولات والتصورات السوسيولوجية بصفة أساسية الأمر الذي تعكسه بشكل جلي كل كتاباته. ففي عام ١٩٤٥ ظهر كتابه «الداروينية الاجتماعية في التفكير الأمريكي» Social Darwinism in American Thought حيث استعرض مراحل تطور السبنسرية على مدى التاريخ إلى أن صار تأثير هربرت سبنسر في أمريكا أكبر منه حتى في انجلترا. ومع أن هذا الكتاب كان يحمل في طياته نقدا مميزا لنظرية التطور الاجتماعي لهربرت سبنسر فإنه ينتهي إلى تقرير مكانتها في

المجتمع الأمريكى لدرجة قال معها : «إنه على مدى العقود الثلاثة منذ الحرب الأهلية كان من المستحيل أن يكون المرء فعالا أو نشطا فى أى مجال من المجالات الثقافية دون أن يكون مسيطرا تماما وعلى وعى كبير بالسبنسرية» وهو قول ربما أصدقته إلى حد بعيد عملية الإحياء لسبنسر التى انبعثت بعد ذلك على أيدى تالكوت بارسونز بصفة خاصة.

وبعد هذا التاريخ توالت كتب ومؤلفات هوفستادر من بين أهمها «التقليد السياسى الأمريكى» The American Political Tradition (١٩٤٨) و«عصر الإصلاح» The Age of Reform (١٩٥٥) (هذا الكتاب نال جائزة بوليتزر عام ١٩٥٦) الذى ضمنه أفكاره عن الوضعية التى وصل إليها الفكر الاجتماعى والاقتصادى الأمريكى وهى وضعية وصفها بأنها مهددة للكيان الأمريكى نفسه خاصة مع حدوث الكساد العالمى سنة ١٩٢٨. وكذلك كتاب «أسلوب السياسة الأمريكية» (١٩٥٩) و«فكرة النظام الحزبى» The Idea of a Party System (١٩٦٩) ثم «العنف الأمريكى» The American Violence (١٩٧٠) .

ومع ذلك يظل مؤلفه «النزعة ضد الثقافة فى الحياة الأمريكية» Anti - Intellectualism in American Life الذى صدر فى ١٩٦٣ أهم مؤلفاته وأكثرها إثارة للجدل والنقاش (نال هذا الكتاب جائزة بوليتزر للمرة الثانية) وهو يؤكد أن مظاهر الإثارة والشعارات والإفراط فى الديمقراطية الجاكسونية Jacksonian قد ولدت فى حياة الشعب الأمريكى السياسية الكثير من مظاهر الحقد والكراهية نحو المثقفين الذين أصبحوا ينظر إليهم على أنهم ممثلون لحياة الصفوة المغترية.

وفى هذا الكتاب مضى هوفستارد يتحدث عن العديد من الأمثلة على مظاهر الاعتداء والمعارضة للحياة الثقافية والعقلية التى تراكمت فى حمى المكارثية Mc Carthyism التى اندلعت فى إبان الخمسينيات وكلها أمثلة يصعب مقارنتها بأية وضعية فى أى بلد أوربى أو حتى كندا مما يجعل لهذه النزعة طابعا مميزا. وربما كان هذا الإدراك الواعى هو ما حفزه إلى الإعلان عن رأيه القائل بأن «الحياة الأمريكية الهشة والتى لا جذور لها أو انسجام فيها .. وزحفها الغريب إلى المركز بحثا عن الأمان والهوية قد أفسحا الطريق أمام ظهور نوع من السياسة التى تميل

إلى التعبير عن نفسها بأسلوب «بارانودى» نكتفى فه بمجرد اجترار الذكريات ومظاهر البحث عن كبش فداء أكثر منه تقديم المقترحات والمشروعات لأجل العمل والتغيير الإيجابيين.

★ ★ ★

يعتبر جورج كاسبر هومانز أحد قادة علماء الاجتماع الأمريكيين خلال الستينيات والسبعينيات من القرن الماضى الذين أسهموا إسهاما كبيرا فى تطوير النظرية الاجتماعية وفى ترسيخ نظرية التفاعل التى نجحت تصوراتها فى إلقاء كثير من الضوء على فهم السلوك الدافعى فى التنظيمات الصناعية والجماعات الصغيرة على وجه الخصوص وكان هذا بمثابة دفعة قوية لعلم اجتماع التنظيم والاجتماع الصناعى على السواء وبخاصة على النحو الذى نجده فى كتاباته الأساسية «الجماعة الإنسانية» The Human Group (١٩٥٠) واعتمد فى هذا الكتاب على نتائج خمسة بحوث شهيرة سابقة و«السلوك الاجتماعى: أشكاله الأولية» Social Behaviour Its Elementary forms (١٩٦١) وهما الكتابان اللذان أكد فيهما على أهمية التفاعل بين الأفراد والجماعات كأساس لنمو النظم الاجتماعية وتطورها وهو ما يختلف على أية حال عما ذهب إليه تولكوت بارسونز الذى اعتبر النظم أساسا للتفاعل.

ويبدأ هومانز من قضية رئيسية هى أن الجماعة الصغيرة التى تعتبر من وجهة نظره ركيزة علم الاجتماع هى نسق له مقوماته وجوانبه الداخلية والخارجية. ولكن مفهوم النسق لما كان يعتبر أساسا للنظرية العلمية فيكون معنى هذا ارتباط علم الاجتماع نظريا بمختلف العلوم النظرية الأخرى بصرف النظر عن قدمها أو حداثتها. ومن ثم فتكون مهمة العلم هى إذن دراسة سلوك الجماعة عن طريق تحليله إلى عناصره ومكوناته الأساسية واكتشاف العلاقات المتبادلة فيما بينها ومظاهر الاعتماد المتبادل القائم بينها جميعها . على حين سعى فى الكتاب الثانى إلى تحليل السلوك الاجتماعى من خلال ثلاثة مفاهيم أساسية هى التفاعل Inter-action والعواطف Sentiments والأنشطة Activity حيث تشير إلى التساند المتبادل بين مظاهر الفعل والسلوك. وإن كان اختياره لهذه المفاهيم الثلاثة مما يمكن أعتباره رد فعل لكتابات اليوت شابل Chapple وكونراد آرنسبرج Arensberg (١٩٤٠) على وجه الخصوص وإن كان هذا بدوره لا يخفى تأثره بعالم النفس سكينر Skinner

رغم أنه أطلق عليها مسميات جديدة فمصطلح النشاط عنده هو نفسه مصطلح السلوك الفعال الذى استخدمه سكينر.

إلا أن هومانز له موقف خاص من النظريات الاجتماعية فهو يرى أن معظم ما يطلق عليها نظريات علم الاجتماع الحديثة مما تتضمن كل المميزات الممكنة ولكن ينقصها التفسير ومن بين أسباب هذه المشكلة أن معظم هذه النظريات تتكون من مجموعات من الفئات أو الوحدات التى يصنف إليها عالم الاجتماع جوانب السلوك المختلفة الأمر الذى يتم فى أحيان كثيرة بطريقة عشوائية مما يعزوه أيضا إلى فقدان كثير من العلماء للحس الاجتماعى الذى يلهم الباحث ويرشد خطواته. وهذه ناحية يظهر فيها مدى تأثره بمالينوفسكي وبحسه الفائق الذى لم يحاول أخفاءه أبدا.

ومن الناحية الأخرى اهتم هومانز أيضا بإبراز أوجه الاختلاف بين الاتجاهات الأمبريقية والعقلانية فى دراسة المجتمع فوجه انتقاداته للدارسين بسبب استخدامهم المفاهيم الكلية والمصطلحات الفضفاضة ويعطى أمثلة لذلك مفهوم الروح الرأسمالية عند فيبر ومفهوم البناء العلوى والبناء التحتى عند ماركس ومثلهما مفهوم فائض القيمة وكلها من نوع المفاهيم الوصفية على حين يطلق على المفاهيم الأمبريقية وصف المفاهيم العلمية أو الواقعية.

وكما أن هومانز لم يخف إعجابه بمالينوفسكى فقد تأثر أيضا بفلفريدو باريتو Pareto فكان موضوعا لواحد من كتبه «مقدمة (مدخل) لباريتو» An Introduction to Pareto (١٩٣٤) ألفه بالاشتراك مع كورتيس Curtis وكان يدور حول علم الاجتماع فى محاولة لتنظيم الأفكار المشوشة التى يمتلئ بها العلم. وإن كان مما أخذه على باريتو عدم الاهتمام بالبناء وتركيزه على الوظيفة فى الوقت الذى كان يشك كثيرا فى جدوى مفهوم التوازن Equilibrium فى شرح وتفسير الظاهرة الاجتماعية وربما كان الأجدى الاهتمام بالتوازن العملى وبديناميات الجماعة باعتبار أن الجماعة الإنسانية خطة تصورية لدراسة التنظيم الاجتماعى اعتمادا على نتائج ما تم اجراؤه من بحوث.

★ ★ ★

الفيلسوف وعالم الاجتماع والتربوى الأمريكى سيدنى هوك من بين جيل المثقفين الأمريكان الذين جذبهم بريق الماركسية وبخاصة فى كتاب «من هيجل إلى ماركس» From Hegel to Marx ولهذا فلا يبدو غريبا أن يقدم على تحليل للماركسية حيث وقف موقفا مناهضا لكل صور الحكم الفردى والشمولى متخذا من الديمقراطية الليبرالية نموذجا للبناء السياسى اللازم لأى تطوير اجتماعى وعلمى فعال.

ولقد ولد سيدنى هوك فى ديسمبر عام ١٩٠٢ بمدينة نيويورك وبعد أن حصل على درجة الدكتوراه من جامعة كولومبيا (١٩٢٧) بإشراف جون ديوى Dewey قام بالتدريس فى جامعة نيويورك (١٩٢٧ - ١٩٧٢) وما أن تقاعد حتى شغل منصب مستشارا للبحوث فى جامعة ستانفورد وباعتباره أحد مؤيدى البراجماتية والفكر البراجماتى فقد تبنى فلسفة عامة فى تطوير الشخصية الإنسانية وهو ما انعكس فى كتاباته ومؤلفاته التى بلغ عددها أكثر من ٣٥ كتابا من بينها «نحو فهم كارل ماركس : تفسير ثورى» Towards The Understanding of Karl Marx: A Revolution Interpretation (١٩٣٣) وكتاب «البطل فى التاريخ» The Hero in History (١٩٤٣) وكتاب «التربية لأجل الإنسان الحديث» Education for Modern Man (١٩٤٦) و«فى الدفاع عن الحرية الأكاديمية» In Defence of Acadamic Freedom (١٩٧١) وفى العام نفسه كتابه عن ديوى "جون ديوى : بورترية لمثقف" John Dewey: An Intellectual Portrait ثم كتابه «الثورة والإصلاح والعدالة الاجتماعية» Revolution, Reform and Social Justice (١٩٧٦).

وباعتباره واحدا من أهم شراح الماركسية فقد ذهب إلى أن المادية التاريخية التى أعلنها ماركس ليست سوى ضرب من التفكير اليوتوبى فهو لم يرجع ظواهر الدين والفلسفة إلى مجرد الأصول الاقتصادية كما لم يردها إلى أصول أو مصادر مادية وإنما ماركس كشف فحسب عن (الزاوية) الاقتصادية التى تصوغ ظواهر الفكر السياسى والقانونى والتى تفسر ظهورها أو اندحارها . وعلى الرغم من أنه لم يربط

النظرية الماركسية بالظروف الخاصة بالمجتمع الأمريكى أو بتقاليد الفكر الاجتماعى الأمريكى نظرا لأن الحركات السياسية كانت أكثر ارتباطا واهتماما بفكر جون ستراتشى Strachey وبخاصة فى كتابه The Coming Struggle for Power الذى كان له تأثير واضح فقد كانت الأوساط الأكاديمية تستعمل كتاباته كمرجع أساسى لتنشئة المثقفين وتوجيههم لما ينبغى أن يكون عليه التعليم الاجتماعى العالى مما جعل الماركسية تظل فى الولايات المتحدة مشوبة دائما بصبغة من التشوش والغموض.

* * *

ربما كان الفيلسوف وعالم الاجتماع الألمانى هوركهايمر أهم رموز مدرسة فرانكفورت التى ترجع إليها أصول النظرية النقدية التى استمدت الكثير من مقوماتها من الفلسفة الهيجيلية والفلسفة الماركسية بوجه خاص وذلك إلى جانب زملائه أعلام هذه المدرسة وفى مقدمتهم أدورنو وهربرت ماركيوزة وليو لوينثال وإيريك فروم إضافة إلى هابرماس وجورج لوكاتش وغيرهم ممن التقى بهم فى منفاهم الاختيارى بالولايات المتحدة وممن اعتقدوا بأن وظيفة العلوم الاجتماعية هى التحليل النقدى الملتزم للمجتمع والأيديولوجيا.

ولقد تأسست مدرسة فرانفكورت عام ١٩٢٣ كمركز متخصص فى الأبحاث الماركسية ومنذ البداية غلبت عليه نزعة تشاؤمية واتخذ موقفا نقديا من الماركسية الأرثوذكسية ولهذا فعندما بدأ معهد البحث الاجتماعى Institute for Social Research فى العمل توجه معظم عمله إلى البحث الأمبريقى والبحث النظرى فى خطة لارتياد الجوانب الجوهرية فى المجتمعات الرأسمالية والاشتراكية وخاصة منذ عام ١٩٣٠ عندما عين مديرا لهذا المعهد. ففى أثناء رئاسته للمعهد واستمرار هذه الرئاسة حتى وهو فى المنفى فى فرنسا وأمريكا ثم بعد ذلك بعد عام ١٩٣٣ حدث تغير فى اتجاهات المعهد وتوجهاته إذ ظهر اهتمامه وشاركه هذا الاهتمام أدورنو وماركيوزه فى الحقيقة بتطور المادية التاريخية التى أخذ البحث النظرى يوليها اهتماما خاصا الأمر الذى كان بداية لبلورة برنامجه أو مشروعه الضخم لما يمكن أن يطلق عليه النظرية الاجتماعية النقدية Critical Social Theory وهى تسمية أطلقها مقابل ما ذهب إليه ماركس فى نظريته فى نقد الاقتصاد السياسى Critique of political Economy ولتعمل بالطريقة ذاتها التى وصف بها لوكاتش الوعى الطبقى للبروليتاريا .

والواقع أنه بالطريقة نفسها التى قابل (عارض) بها الفكر البرجوازى بفكر الطبقة العاملة كذلك بالنسبة لهوركهايمر الذى يرجع إليه فضل سك مصطلح «النظرية النقدية» وهو يقابل هذه النظرية بالشطرية التقليدية Traditional .

فالنظرية التقليدية يراها هوركهايمر نظرية تأملية تساعد كثيرا فى عملية إعادة الإنتاج الاجتماعى فى إطار من تقسيم العمل ونظام المصنع البرجوازى بينما النظرية النقدية مهمتها الرئيسية أن تعمل خارج نطاق المجتمع البرجوازى وخارج المحددات القاسية التى يفرضها هذا المجتمع والتعبير باستمرار عن موقف نقدى للأنساق والمجتمعات الرأسمالية وهادفة بهذا الإدراك إلى أن تضع متناقضات هذه المجتمعات البرجوازية فى مستوى الوعى والشعوب. وهذا بالضبط ما سعى إلى توضيحه فى مقالته الشهيرة التى نشرها تحت عنوان «النظرية التقليدية والنظرية النقدية» Traditional and Critical Theory (١٩٣٧) حيث تناول بالشرح والتوضيح مدخله النقدى وطبيعة العلاقة بين النظرية والتطبيق وهى مقالة كان لها على أية حال أثر كبير ليس فى وقت ظهورها فحسب ولكن أيضا عندما عاد هذا الأثر إلى الظهور بعد ذلك بحوالى ثلاثة عقود فى أواخر الستينيات عندما أصبح الموضوع مثار جدل كبير بين حركة الطلاب والجيل الأكبر من مدرسة فرانكفورت وكان ذلك من بين الأسباب الرئيسية فى ذيوع فكر هابرماس وشهرته.

وباستثناء كتبه القليلة (إذا ما قورنت بغيره من العلماء) سواء تلك التى ألفها بمفرده أو بالاشتراك مع غيره فإن المقالات (الكثيرة) والموضوعات التى نشرها فى منتصف الثلاثينيات على شكل سلاسل استطاع أن يضمنها بنجاح بعض الأفكار الرئيسية الرائدة لمدرسة فرانكفورت وبخاصة المفهومات والتصورات التى عبر بها عن مضامين النظرية النقدية. أضف إلى ذلك عاملين آخرين كانا وراء انتشار أفكاره الأول أن إقامته فى كاليفورنيا كانت ملتقى لكثير من المثقفين الألمان حيث تخضع للحوار والنقاش مختلف القضايا والرؤى والمواقف والثانى أنه عندما كان فى نيويورك فقد أشرف على تحرير مجلة «دراسات فى الفلسفة والعلم الاجتماعى» التى كان يصدرها أثناء وجوده فى الولايات المتحدة.

ولكن بعد انتهاء الحرب توجه مشروعه وجهة سياسية واضحة وبخاصة بعدما أعاد تنظيم معهد البحث الاجتماعى فانشغل لفترة طويلة فى مشروع مشترك مع أدورنوهو «جدل التنوير» Dialektik der Auftarung الذى ظهر فى عام ١٩٤٧. وفى الوقت نفسه أخذ يركز كل اهتمامه فى دراساته عن التحامل والتمييز العنصرى التى شارك بعض أعضاء مدرسة فرانفكورت فى بعض مجلداتها. وهذا بخلاف إشرافه

على إحدى الدراسات الرائدة عن السلطة وعلاقاتها فى الأسرة «وظهرت تحت عنوان» Studieu über Autoritat und Famillie وتأثرت بهـــا تأثرا شـــديدا ميراكوماروفسكى Komarovsky فى دراستها التى أجرتها عام ١٩٤٠ عن مركز الرجل العاقل والمتزن فى الأسرة وما إذا كانت بطالته وعدم انشغاله يؤثران فى سلطته أو يفقدانه هذه السلطة.

★ ★ ★

من أهم العلماء الذين هاجموا الوضعية الراهنة للاتجاهات الأمبريقية التى جعلت علم الاجتماع يسير - كما يقول - فى طريق مسدود حيث أدت هذه الاتجاهات إلى تجميع كثير من المعارف والمعلومات عن موضوعات قليلة الأهمية تاركين المشكلات الحقيقية التى تواجه المجتمع الإنسانى بعيدة عن الاهتمام . كما ربط بين ظهور الاتجاه الأمبريقى وبين مختلف الانتقادات التى وجهت إلى المذهب التاريخى Historicism الذى يعتمد على النظرة الكلية والشاملة فى تفسير الظواهر الاجتماعية والثقافية وفى تفهم أحداث التاريخ بالاعتماد على دعاوى غير قابلة للاختبار والتحقق الأمبريقى.

مدخله هو إذن مدخل نقدى بالدرجة الأولى يسعى أساسا إلى بناء علم احتماع هادف جديد يكون شغله الشاغل الاهتمام بالبحث فى المشكلات الكبرى كمشكلات الصراع وحل الصراع والتصورات المرتبطة بذلك باعتباره فى أعماق الواقع الاجتماعى بالإضافة إلى تلك المشكلات المتعلقة بالثورة ضد الفقر وضد التفرقة العنصرية وضد التحامل ضد السود علاوة على كافة المشكلات الناجمة عن التصنيع وآثار الخطوات التكنولوجية الهائلة التى فى المجتمعات المتقدمة.

وتعتبر فترة عمله كأستاذ علم الاجتماع بجامعة روتجرز Rutgers منذ أربعينيات القرن الماضى وحتى أواخر الستينيات من أخصب الفترات التى وضح خلالها اهتمامه الكبير بالمنهج وماهيته وبالنظرية وبنائها وكيفية صياغتها وما يرتبط بذلك من قضايا ومشكلات تتعلق بالنظرية والبحث التطبيقى وكان السؤال الأساسى الذى طالما شغل باله يدور عن نوعية التطبيق ونوعية الأهداف التى يرمى إلى تحقيقها وتحت أية ظروف. وفى تصوره أن الإجابة على هذا التساؤل مما يستدعى توفير أكبر قدر من الحرية التى يجب منحها للباحثين بعيدا عن أى تدخل يعوق حرية الفكر والبحث. وربما نزولا على مثل هذه التصورات أمكنه أن يشارك بنجاح فى بعض المجلات والدوريات العلمية إذ شارك فى تحرير Trans-Action Magazine وهى مجلة نقدية فى العلوم الاجتماعية تسعى إلى بناء علم اجتماع

هادف مع نخبة من العلماء وفى مقدمتهم ألفين جولدنر Gouldner ولى رينووتر Rainwater وليونارد زفيج Zweig ونيلسون آلدريخ Aldrich .

وفى اعتقاد هوروفيتز أن أى جهد فى علم الاجتماع لابد أن يبدأ من مشكلة تكون جديرة بالبحث والدراسة والاهتمام وحيث يسعى الباحث إلى الكشف عن المتغيرات المرتبطة بالمشكلة على المستويات الاجتماعية المختلفة مع مراعاة العوامل السيكولوجية التى لا يمكن إغفالها تماما وحيث تبرز أهمية توافر المعلومات لأنه بدون المعلومات لا يكون هناك تفسير وإن كان من المهم تصنيف هذه المعلومات بحسب أهميتها وأولوياتها .

والواقع أن هوروفيتز سواء فى تحديد منهجيته أو بلورة مواقفه النظرية قد تأثر كثيرا ببعض كبار العلماء من معاصرين وممن سبقوه فقد تأثر برايت ميلز Mills وصامويل ستوفر Stouffer الأول من حيث خياله الخصب الذى يمثل عالم الاجتماع المبدع ومن حيث أنه يضع الهدف الأخلاقى في مقدمة الاهتمام الاجتماعى. وبالرغم من أن هوروفيتز لا يعتبر من أنصار الإحصاءات أو الذين توجههم فى بحوثهم إلا أن تأثره بصامويل ستوفر كان أساسيا من حيث الربط بين الاهتمامات الماكروسوسيولوجية بمنهجية البحوث الاجتماعية التى تدور حول المشكلات التى لها دلالاتها وذلك فى الوقت الذى تأثر أيضا بكل من هربرت بلومر Blumer وروبرت ليند Lynd وأناتول رابابورت Rapoport ودافيد ريسمان Riesman وهوارد بيكر Becker حيث اهتم بتأثير الأخير بالذات بدراسة العلاقة بين الانحراف الاجتماعى والوضعية السياسية التى تعتبر علاقة أساسية فى الحياة الاجتماعية. أضف إلى ذلك أن كل هؤلاء هم بلا شك ممن يتمتعون بالنزعة العلمية الإنسانية العميقة وبالالتزام الواضح والرؤى المحددة بمعنى أن نظرته لعلم الاجتماع كانت بعيدة عن أية نظرة أحادية قاصرة.

وفى ضوء مثل هذه المنهجية التى تهتم اهتماما كبيرا بصياغة الفروض اعتقادا منه بأن أى بحث لا يبدأ بالفروض لن ينتهى إلى أية نظرية إلى جانب اهتمامه بالمنهج والاعتماد على وضوح وتكامل الخطة التى يسير على مقتضاها الباحث دارت معظم كتاباته وبخاصة كتابه «الراديكالية والانقلاب ضد العقل»

الذى ظهر في الخمسينيات وكتابه Radicalism and the Revolt Against Reason الآخر الهام «ثلاثة عوالم نامية Three Worlds of Development (١٩٦٦) وإذا كان قد تناول فى الكتاب الأول أحداث التحولات الاشتراكية وبخاصة فيما بين موت ماركس وانجلز ومولد لينين وستالين فقد كرس الكتاب الثانى لبحث مشكلات تحول المجتمع الأمريكى فى الستينيات إلى الفردية المغرقة وهو ما عبر عنه بأن النزاع بين الاشتراكية الديمقراطية وبين الاشتراكية الذى وصفه فى الكتاب الأول قد عاد إلى الظهور ثانية فيما أطلق عليه السياسات الراديكالية والسياسات التقدمية أو التحريرية حيث يؤثر أى تغير فى أى مكان فى غيره من الأماكن وفى مجرى الأحداث ويضرب مثالا لذلك التغيرات الاجتماعية التى تحدث فى العالم الأول (أمريكا) والعالم الثانى (الاتحاد السوفيتى) وتأثيرها فى العالم الثالث غير الصناعى .

ومهما يكن من أمر ففى نظرته إلى طبيعة التطور الذى حدث فى مجال البحث السوسيولوجى يصعب أبعاد تأثره بكل من ماركس وجميلوفيتش وزيميل وجورج سوريل حيث استمد من كل هؤلاء المادة الخام التي ساعدته فى بناء نظريته فى الصراع وتأكيده لدينامية وعدم استقرار الظاهرة الاجتماعية عموما على ما يظهر فى كتابه «الفلسفة والعلم وعلم اجتماع المعرفة» ١٩٦١ Philosophy, Science and Sociology of Knowledge وكتابه الثانى (أشرف على تحريره) بعنوان «ازدهار وسقوط مشروع كاميلوت» The Rise and Fall of Project Camelot (١٩٦٧) عن قصة الصراع والثورة فى الدول النامية ووضع القادة ودور علماء الاجتماع سواء كباحثين فى قضايا الثورة أو كمستشارين.

★ ★ ★

لا يعتبر عالم الأنثربولوجيا الأمريكي ويليام هوايت هاولز عميدا للأنثربولوجيا الفيزيقية في أمريكا فحسب ولكنه يحتل مكانة مرموقة كأحد أساطين الأنثربولوجيا الطبيعية في العالم كله. فقد تخصص منذ بداية حياته العلمية في تشييد وبناء العلاقات الإنسانية باستخدام المقاييس الفيزيقة كما اشتهر بأعماله المنوعة التي استهدفت تطوير الأنثربولوجيا وتطويع مناهجها وأساليبها لارتياد مجالات جديدة مستعينا في ذلك بالمناهج الاحصائية والكمية التي ساعدته كثيرا في صياغة المشكلات المورفولوجية واقتراح الحلول لها الأمر الذي يظهر بوضوح في استخدامه لمقاييس الأجرام في الدراسات السكانية على وجه الخصوص.

ولقد ولد هاولز في عام ١٩٠٨ في نيويورك وأدت به دراسته في جامعة هارفارد التي درس فيها على أيدي الأستاذين هوتون Hooton وتوزر Tozzer إلى أن يشغف بالدراسات والبحوث الأنثربولوجية ولذلك فما أن حصل على درجة الدكتوراه حتى انضم إلى فريق البحوث في المتحف الأمريكي للتاريخ الطبيعي في نيويورك ثم انتقل بعد ذلك إلى جامعة ويسكونس التي استمر بها لمدة عشرين عاما وذلك إلى أن تبوأ كرسي الأستاذية في الأنثربولوجيا الطبيعية في هارفارد بعد وفاة هوتون في عام ١٩٥٤ ومن ثم عمل باحثا وأمينا لمتحف بيبودي Peabody للأثنولوجيا الأمريكية التابع لهذه الجامعة بالإضافة إلى توليه رئاسة الرابطة الأمريكية للأنثربولوجيا ورئاسته أيضا تحرير المجلة الأمريكية للأنثربولوجيا الفيزيقية .

المشكلة الرئيسية التي شغلت تفكيره دائمًا كانت الظاهرة الإنسانية بعامة والكيفية التي تطور بها الإنسان على مدى تاريخه الطويل والكيفية التي ظهرت بها حضاراته وثقافاته ونظمه الاجتماعية وعاداته وتقاليده وأعرافه. كيف نشأ المجتمع البشري وماذا عن مراحل تطوره ومظاهر هذا التطور بمعنى آخر؟

وفي محاولته بناء جوانب هذه الملحمة الطويلة كان من الطبيعي أن يظهر بصورة واضحة مدى تأثره بالأستاذ : أرنست هوتون وهو تأثر من السهل رؤية

ملامحه فى كل كتاباته ومقالاته التى دأب على كتابتها بطريقة مبسطة وبأسلوب سهل وشيق ساعد على ترجمتها على نطاق واسع جعل التخصص العلمى فى متناول يد الجميع.

كتابه الأول صدر فى عام ١٩٤٥ تحت عنوان Mankind So far عبارة عن مزاج من الجوانب العضوية والثقافية فى تطور الإنسان وإن كان أكثر تركيزا على النواحى الثقافية بخاصة: وأتبع هذا الكتاب بكتاب آخر بعنوان «الإنسان وأديانه» The Heathens: Primitive Man and His Religions (١٩٤٨) ثم بعد ذلك Man in the Making (١٩٦٧) ومن بعده «تطور الجنس البشرى» Evolution of the Genus Homo (١٩٧٣) ويعتبر كتابه الفذ المعنون «ما وراء التاريخ» ربما أروع كتاباته وأكثرها عمقا حيث تناول فيه قصة التطور والدور الذى لعبته اللغة والدين فى بناء الحضارات وفى تكيف الإنسان وبقائه واستمراره على مدى آلاف السنين.

★ ★ ★

عالم آركيولوجى ولغوى ألمانى شهير عرف بدراساته الواسعة عن الخطوط المسمارية الحيثية وفتح بذلك آفاقا واسعة أمام الدراسات المهتمة بالتاريخ القديم وبثقافات الشرق الأدنى حيث توالت على مدى العصور العديد من الدول والأمبراطوريات التى كانت لها حضاراتها الزاهرة مثل حضارة بابل وآشور فى بلاد ما بين الرافدين (ميسوبوتاميا) ومن بعدها العيلاميون Elamites والعموريون Amorites والحيثيون Hittites ثم الكاشيون Kassites .

ولد هروزنى فى بوهيميا **Bohemia** عام ١٨٧٩ وبعدما أكمل تعليمه شارك فى التنقيبات والحفريات التى كانت فلسطين مسرحا لها فى عام ١٩٠٤ وفى العام الذى يليه (١٩٠٥) عين أشتاذا فى جامعة فيينا وظل بهذه الجامعة إلى أن عين بجامعة شارلز فى براج **Prague** أستاذا للخطوط المسمارية وتاريخ الشرق القديم فى الفترة من ١٩١٩ حتى وفاته فى عام ١٩٥٢.

أثارت اهتمامه النقوش الحيثية الملكية التى اكتشفت فى بوغازكوى Bogazkoy وتور Tur فى عام ١٩٠٦ ، فانكب على تحقيقها وتفسيرها وشرح أصولها الأمر الذى استغرقه عدة سنوات إلى أن نشر مؤلفه الرئيسى «لغة الحيثيين» Sprache der Hathites (١٩١٥) الذى ما إن صدر حتى أثار ضجة وصار عرضة لكثير من الانتقادات التى وجهت إليه بسبب ما تضمنه من آراء لم يقبلها الكثيرون وبخاصة عندما أعلن أن الحيثية من حيث الأصول ترجع إلى العائلة الهندوأوربية Indo-European وأنها «الحيثية» قد ارتبطت ارتباطا وثيقا بالايرانية والإيطالية القديمة والسلتية والسلافية.

وليس الهدف هنا هو تحقيق هذه المسألة التى ما زال يدور جدل كبير من حولها ولكن من المهم مع ذلك الإشارة إلى ناحية معينة قد يكون فى الانتباه إليها ما يلقى بشىء من الضوء على قضية أصل اللغة الحيثية برمتها. فبالنظر إلى خريطة العالم القديم سنجد أن هذه المنطقة التى عرفت الحضارة البابلية الآشورية قد بدأت تفد إليها بعض الشعوب الرعوية الأولى فى الفترة من حوالى ١٨٠٠ ق.م

تقريبا مما يعني أنه كانت هناك أنماط أخرى من الحضارة البسيطة التى اتخذت لنفسها أساليب حياة مختلفة ومغايرة اتصفت بالخشونة والجراءة وما إلى ذلك من الصفات التى يتصف بها الرعاة عموما. وما يهمنا أنه مع تراجع بابل الحضارى كان هؤلاء الرعاة الآسيويون بعرباتهم الحربية التى تجرها الخيول يتجهون بصفة رئيسية إلى الشرق الأدنى وإلى سوريا وفلسطين واكتسح هؤلاء الغزاة (الحيثيون) كل الواحات المستقرة سواء فى جنوب أو وسط آسيا حتى أصبحوا يهددون بابل ذاتها ويقتحمون معاقلها ويقيمون فيها حكمهم. وفى الوقت نفسه أقاموا دولة أخرى فى آسيا الصغرى فى عام ١٦٤٠ق.م استمرت إلى أن جاء من بعدهم فى حوالى عام ١٥٠٠ ق.م الكاشيون الذين قدموا من شعاب جبال زاجروس Zagros التى تفصل ما بين إيران وسهول ما بين الرافدين .

وإذا كان الرأى السائد الذى يأخذ به جماهير الباحثين أن الفصيلة الحامية السامية تشتمل على مجموعة اللغات السامية Semitie ومجموعة اللغات الحامية Hamitic وأن المجموعة الأولى (السامية) تتكون أساسا من اللغات السامية الشرقية التى تضم البابلية والآشورية واللغات السامية الجنوبية التى تضم العربية واليمنية القديمة والحبشية السامية واللغات السامية الغربية التى تضم الآرامية والكنعانية والموحابيتية والعبرية (وبعضها كاد يندثر تماما) ، فلابد أن يكون واضحا فى الاذهان حقيقة التعقيد والتشعب الهائلين فى الفصيلة الهندوأوربية التى ذهب هروزنى إلى أنها أصل اللغة الحيثية . لأن هذه الفصيلة تتشعب بدورها إلى الشعبة الشرقية والشعبة الغربية. ومما له دلالة هنا هو أن الشعبة الشرقية تضم مجموعتى اللغات الآرية (تتشعب إلى الهندية والإيرانية) واللغات البلطيقية السلافية (تتشعب إلى السلافية والبلطيقية) علاوة على الأرمينية والألبانية. فى الوقت الذى تمثل اللغات الغربية الأوربية إحدى التقسيمات الهائلة للشعبة الغربية (من الفصيلة) وما يهم هنا هو أن هذه اللغات الغربية الأوربية تتشعب إلى اللغات الإيطالية الكلتية التى تشتمل على كل من الإيطالية والكلتية.

ومما سبق يتضح بجلاء مدى تعقد وتشعب العائلة الهندوأوربية باعتبار أن لغاتها والشعب التى تتشعب إليها تجعلها أكثر العائلات اللغوية انتشارا وذيوعا حيث يتحدث بها الآن ما يزيد على ألف مليون نسمة فى مختلفة بقاع العالم وهو ما يسمح

بوجود كثير من التداخل إن لم يكن التأثير المتبادل والتمازج ما بين اللغات ويجعل من محاولة القول الفصل فى مسألة أصول اللغات أمرا على غاية من الصعوبة.

وعلى أية حال فقد عاد هروزنى ليعزز آراءه فأقدم على ترجمة بعض الوثائق التى عثر عليها بين العديد من الرسائل والنصوص التى تصور جوانب الحياة المختلفة وبخاصة الجوانب الاقتصادية والقانونية إبان هذه الفترة واعتمد فى ذلك على ترجمة لأحد القوانين الحيثية وصدر له مؤلفه «النقوش المسمارية الحيثية من بوغازكوى» Hethitische Keilschr: fttexte au Boghazkoi (١٩١٩).

وعموما فقد قاد فى عام ١٩٢٥ بعثة علمية تشيكو سلوفاكية للتنقيب فى تور Tur حيث تمكنت من تغطية حوالى مائة ألف مخطوطة آشورية كما كشف عن مدينة كانيش Kanesh الأثرية القديمة وبذلك وضع فى دائرة الضوء الكثير من مظاهر الحياة اليومية فيها. وهو الطريق الذى استغرقه البقية الباقية من عمره الذى كرسه لدراسة بعض المشكلات المستعصية المتعلقة بالشفرات ورموزها فى محاولة لحلها والوقوف على معانيها للتعرف على ما تخفيه من أسرار.

★ ★ ★

يقف عالم الجغرافيا الأمريكى الثوورث هنتنجتون فى مقدمة الباحثين الذين شغلتهم مسألة الفروق الاقتصادية والتكنولوجية التى توجد بين الجماعات المختلفة واستند فى تفسيره لهذه الفروق إلى التأثير البيئى المباشر وغير المباشر الذى يؤثر فى الشخصية وفى حضارة الإنسان بما يتدخل كثيرًا فى مكونات الحياة الاقتصادية والتكنولوجية ويحدد بالتالى مدى تقدمها بل درجة ذكائها وطبيعتها المزاجية.

ولقد ولد هنتنجتون فى الينوى عام ١٨٧٦ وعمل عضوا فى كلية جامعة ييل من ١٩٠٧ – ١٩١٧ ثم باحثا فى معهد كارنيجى **Carnegie** بواشنطن فى الفترة من ١٩١٧ حتى وفاته فى ١٩٤٧ فى نيوهافن. وبالرغم من أن هناك العديد من النظريات والاتجاهات الفكرية التى سعى أصحابها إلى تفسير الفروق الاقتصادية والتكنولوجية فإن هنتنجتون باعتباره قد اعتمد على التفسير البيئى كان أميل بذلك إلى فكر تشارلس دارون ونظريته فى الانتخاب الطبيعى وبخاصة من حيث القول بأن عوامل المناخ تحدد مسبقا فرص البقاء وأن هذه الفرص تشجع البعض على حين تدفع بالبعض الآخر إلى الموت ومن ثم فإن لكل بيئة مناخًا خاصًا ومزاجًا خاصًا حيث تظهر أهمية تأثير المناخ فى النشاط الاقتصادى وغيره من النشاطات الإنسانية وخاصة من حيث درجة الحرارة الشديدة التى تؤثر بشكل أو بآخر على الإنتاج الأمر الذى تختلف معدلاته نسبة لمدى تعرض المناطق (أو المدن) إلى الحرارة.

وعلى الرغم من أهمية العوامل البيئية فقد لقيت هذه النظرية البيئية الاقتصادية غير قليل من المعارضة وبخاصة بعدما أصبح من المسلم به أن ثمة أهمية بالغة للعوامل التاريخية والسياسية والدينية والثقافية وكلها مسئولة فى النهاية عن تنوع أشكال التكنولوجيا والاقتصاد فى المجتمعات التى تتماثل أقاليمها من الوجهة الطبيعية.

وعلى العموم فقد ظهرت نظرية هنتنجتون فى عدد من أعماله الرئيسية التى صدر أولها بعنوان «نبض آسيا» The Pulse of Asia فى ١٩٠٧ وتبعه بعدة سنوات كتابه «الحضارة والمناخ» Civilization and Climate (١٩١٥) ثم كتابه الهام الثالث «شخصية الأجناس» The Character of Races (١٩٢٤) ثم «التوطن البشرى» The

Human Habitat (١٩٢٧) وكان آخرها مؤلفه الضخم «المنابع الرئيسية للحضارة» Main Springs of Civilization الذى صدر فى عام ١٩٤٥ أى قبل وفاته بعامين اثنين فقط.

★ ★ ★

J

ياكوبسون، رومان (١٨٩٦ - ١٩٨٢) JAKOBSON, ROMAN

اسمه بالروسية رومان أوسيبوفيتش ياكوبسون ولد فى موسكو عام ١٨٩٦ وعمل استاذاً للغة السلافية واشتهر كمؤسس للحركة الأوربية فى اللغويات البنائية Structural Linguistics التى عرفت باسم مدرسة براغ Prague School حيث قام بتوسيع الاهتمامات النظرية والتطبيقية للمدرسة ومدها إلى نطاقات أوسع من الدراسة والبحث مستخدما مفهوم البناء ليعطى معنى للمادة الخام التى يدرسها كما درس الظاهرة فى مصطلحات العلاقات المتبادلة والمتداخلة بين عناصرها ومكوناتها. وبذلك أصبحت هذه اللغويات البنائية مما يتميز بالعمومية الشاملة والمنهجية وليس الذرية والتفسير الفردى للغويات وبذلك فتح الطريق أمام كلودليفى ستروس إلى عالم اللغويات وبخاصة الفونولوجى Phonology مما وطد العلاقات بين اللغويات وبين الأنثربولوجيا وبخاصة بعدما درسا معا Les Chates التى كتبها الشاعر الفرنسى شارل بودلير.

ولقد نال ياكوبسون درجته العلمية الأولى فى اللغات الشرقية من جامعة موسكو وتأثر تأثرا بالغا بالحركات الفنية الموجودة وبخاصة الشاعر المستقبلى كليبنكوف Kilebnikov فعمل فى ١٩٢٠ أستاذا للغة الروسية فى المدرسة المسرحية العليا فى موسكو High Dramatic School. ومن عام ١٩٢٠ درس وعمل فى براغ حيث أصبح مع نيقولا تروبتسكوى Trubetzkoy وكارشيفسكى Karcevski من أعلام مدرسة براغ المرموقين حيث كانت المدرسة تقريبا الحلقة الرئيسية الوحيدة فى الدراسات اللغوية وبخاصة خلال العقد قبيل الغزو النازى لتشيكوسلوفاكيا. ولكنه سرعان ما أعلن خروجه عن الوضعية الكلاسيكية البنائية لعالم اللغويات السويسرى فردينان دوسوسير DeSaussure مؤكدا أن منهجيته فى دراسة وظيفة الأصوات الكلامية يمكن تطبيقها بشكل تزامنى Synchronically على اللغات كما هى موجودة أو بشكل تاريخى Diachronicall أثناء تطور اللغة وتغيرها فى الزمان وعموما فقد قضى السنوات من ٣٩ إلى ١٩٤١ فى سكاندناوه حيث اهتم بموضوع الأفازيا ولغة الطفل الذى اعتبر آنذاك من أهم الموضوعات المثارة وعندما تأسست

مدرسة الدراسات العليا الحرة فى نيويورك عام ١٩٤٢ على أيدى لفيف من المهاجرين الأوروبيين وجهت إليه الدعوة للمشاركة فى اللغويات فانعقدت بينه وبين ليفى ستروس أواصر صداقة عقلية وروحية متينة. وبعد ذلك ذهب عام ١٩٤٩ إلى هارفارد كما عمل من عام ١٩٥٧ فى معهد ماشو للتكنولوجيا .

والواقع أن ياكوبسون قد شغل عددا من المناصب الأكاديمية المرموقة فمنذ عام ١٩٣٣ بدأ اتصاله بجامعة مازاريكوفا Musarykova فى تشيكوسلوفاكيا حيث أصبح أستاذا لفقه اللغة الروسية (١٩٣٤) واستاذاً لأدب العصور الوسطى التشيكى (١٩٣٦) وإن كانت الأوضاع السياسية آنذاك قد اضطرته إلى أن يهرب إلى جامعات كوبنهاجن ثم أوسلو وأوبسالا حيث عمل أستاذا زائرا فى الفترة من ١٩٤٩ إلى ١٩٦٧.

وتعكس عناوين كتبه ومؤلفاته اتساع النطاق الذى شغله بالبحث والتدريس. فمن بين أعماله المبكرة كتابه «ملاحظات على التغير الصوتى فى الروسية مقارنا بغيره من اللغات السلافية» (١٩٢٩) وكتابه «خصائص الروابط فى اللغة الأوراسينية» (١٩٣١) ثم «دراسات فى لغة الطفل والأفازيا» و«العموميات الفونولوجية» (١٩٤١) ويشتملان على دراسة للمتغيرات البنائية فى النظم الصوتية فى مختلف اللغات إلى جانب دراسته للصلات الشخصية الأساسية بين الأمريكيين والتقاليد الأوروبية فى مجال اللغة.

وفى الفترة بعد الحرب العالمية الثانية تركزت اهتماماته فى الدراسات الفونولوجية ففى عام ١٩٥٢ ظهر مؤلفه «مبادئ التحليل الكلامى» ثم كتابه «أساسيات اللغة» (١٩٥٦) بالإضافة إلى بعض الدراسات الخاصة بتعريف اللغة وبالشعر والقواعد والنحو علاوة على دراسته للملاحم السلافية. ثم فى أواخر أيامه «شكل الصوت اللغوى» (بالاشتراك) الذى صدر فى ١٩٧٩ قبل وفاته بثلاثة أعوام حيث توفى عام ١٩٨٢ فى بوسطن بالولايات المتحدة الأمريكية.

* * *

K

KIDDRE, ALFRED VINSENT **كيدر، الفريد فينسنت (١٨٨٥ - ١٩٦٣)**

على الرغم من أن اسمه قد لا يبدو مألوفا للكثيرين فهو واحد من جيل الكبار الذين قدموا للأنثربولوجيا ولعلم آثار ما قبل التاريخ أجلَّ الخدمات لدرجة أن اعتبر فى مقدمة الأركيولوجيين الأمريكيين الذين اهتموا بالدراسات والبحوث الأركيولوجية الخاصة بجنوب غربى الولايات المتحدة الأمريكية وأمريكا الوسطى على وجه الخصوص.

وقد ولد الفريد فينسنت كيدر بمدينة ماركييت Marquette بولاية ميتشجن فى عام ١٨٨٥ ونال درجة الدكتوراه من جامعة هارفارد عام ١٩١٤ فى موضوع عن تطور الأشكال الأولى للفخاريات التى ترجع إلى عصور ما قبل التاريخ فى جنوب غربى أمريكا وهو موضوع عكس امتدادا لاهتماماته الأولى المبكرة عندما بدأ طريقة فى العمل الميدانى عام ١٩٠٧ بدراساته التى أجراها فى كلورادو Cllorado ونيومكسيكو New-Mexico كما كان بداية - فى الوقت نفسه - لبعض رحلاته وبعثاته العلمية إلى أوتاوا والأريزونا (١٩١٤) وخاصة عندما أصبح مديرًا للتنقيبات فى أكاديمية فيليس Phillys Academy وأيضا فى مناطق بيكوس Pecos وكلها بعثات أضافت كثيرًا إلى الانثربولوجيا والأركيولوجيا فى جامعات الجنوب الغربى إضافة إلى جهوده فى تكوين العديد من الجمعيات العلمية وتصميم بعض المتاحف وإنشائها. ولهذا وصفه البعض بأنه كان القوة الحقيقية الدافعة وراء أول فهم موضوعى يمثل مدخلا منتظما لدراسة اركيولوجيا الأمريكتين.

ومع أن كيدر قد ظل على انتمائه لأكاديمية فيليس حتى ١٩٣٥ إلا أن نشاطه العلمى امتد إلى مواقع أخرى فقد كان عضوا فى مؤسسة كارنيجى Carnegie فى واشنطن فى الفترة من ١٩٢٧ إلى ١٩٥٠ ومشرفا على متحف بيبودى Peabody Museum للأركيولوجيا والاثنولوجيا كما عمل استاذا فى هارفارد (١٩٣٠ - ١٩٥٠) وهى فترة كانت حافلة بالعمل والانجاز إذ نظم لمؤسسة كارنيجى برنامج النشاط المتبادل الذى انبعثت منه العديد من الدراسات فى ثقافات ما قبل التاريخ.

فى العامين ١٩١٩ و ١٩٢١ أصدر كيدر بالاشتراك مع صامويل جورنسى Guernsey كتابين رائدين عن شمال شرقى اريزونا. كما كان مؤلفه الممتاز «مقدمة لدراسة آركيولوجيا الشمال الغربى Introduction to the Study of Northwestern Archaeology (١٩٢١) عميقا فى تناوله تفاصيل تطور ثقافة صانعى السلال فى عصور وثقافات ما قبل التاريخ وهو عمل أصبح معياريا ونموذجا لهذه النوعية من الدراسات بما ألقاه من أضواء على ثقافة البيبلو Pueblo بوجه خاص اعتمادا على نظام تصنيف بيكوس الاركيولوجى الذى شاع استخدامه من قبل الباحثين.

وعلى العموم فقد كانت فترة عمله بمؤسسة كارنيجى مناسبة فريدة لإلقاء المزيد من الأضواء على التاريخ الثقافى لامبراطوريات وشعوب المايا Maya التى ازدهرت فى المكسيك وأمريكا الوسطى وإن لم يمنعه هذا من العمل فى بعض المواقع القريبة من جواتيمالا إلى أن وافته منيته فى كامبريدج بأمريكا عام ١٩٦٣ وهو فى الثامنة والسبعين من عمره.

★ ★ ★

عالم الأنثربولوجي الأمريكي الفريد لويس كروبير يعتبر واحدًا من أبرز العلماء الذين أرسوا أسس الأنثربولوجيا الثقافية وواحدًا من القلائل الذين نجحت كتاباتهم، وبخاصة في النصف الأول من القرن العشرين في أن تترك تأثيرا ضخما في النظرية الثقافية بعامة وفي الجهود التي بذلها العلماء لفهم طبيعة الثقافة والعمليات الثقافية. والواقع أن اهتماماته كانت تدور في مجالات واسعة من البحث الانثربولوجي وبذلك أسهم اسهاما كبيرا في فهم وترسيخ اثنولوجيا الهنود الأمريكيين وعلم آثار ما قبل التاريخ في نيومكسيكو والمكسيك وبيرو والفولكلور واللغويات وأنساق القرابة والبناء الاجتماعي عموما.

ولد كروبير في عام ١٨٧٦ بالولايات المتحدة وأثناء دراسته بجامعة كولومبيا تأثر بالاستاذ فرانز بواز ونال الدكتوراه في ١٩٠١ عن رسالته عن الرمزية التجميلية Decorative في قبائل أراباهو Arapaho الهندية في مونتانا Montane . وفي ذلك العام أسس قسم الانثربولوجيا في جامعة كاليفورنيا باركلي وإلى جانب هذا فقد درس كروبير مواقع الزوني ما بين عامي ١٩١٥ و ١٩٢٠ وهي دراسات أسفرت عن كثير من النتائج التي تتصل بثقافات ما قبل التاريخ حيث استخدم مناهج بحثية منضبطة ولجأ إلى الوسائل التحليلية لتعزيز آرائه ساعدته على بناء نظريته العامة التي تقول بإن الفهم الكامل لأي ثقافة لابد أن يأخذ في اعتباره العناصر الثقافية والتنظيمات التي تتخذها الثقافات أثناء تطورها حيث امتدت جهوده إلى المكسيك (١٩٢٤ - ١٩٣٠) وبيرو في الأعوام ١٩٢٥ ، ١٩٢٦ ، ١٩٤٢ .

وعلى مدى حياته العلمية (توفي عام ١٩٦٠ في باريس) أنتج كروبير فيضا من الكتابات والمؤلفات تزيد على ٥٠٠ مقال وكتاب وسير ذاتية. ويعتبر كتاب «الانثربولوجيا» الذي صدر في ١٩٢٣ من أهم المراجع الأساسية في العلم وكذلك كتابه «آثار بيرو قبل التاريخ» Poruvian Archaeology (١٩٤٢).

كذلك كانت له اهتمامات لغوية تولدت في الأصل من دراساته للهنود الأصليين. وبالرغم من أنه كان أكثر ارتباطا بالمنهجية العامة للغويات إلا أنه ركز

بصفة أساسية على دراسة العلاقات التاريخية بين اللغات بعضها وبعض وفى ذلك أبرز واحدة من أهم القضايا التى تتعلق بانعزال المجتمعات والجماعات الإنسانية والعوامل الثقافية مؤكدا فى هذا على أن هناك كثيرا من الحواجز اللغوية حتى بين الشعوب التى تعيش فى بيئات وأماكن متجاورة مثلما الحال فى غينيا الجديدة التى تنقسم الأهالى فيها إلى عدة جماعات متفرقة يتكلمون أكثر من ٢٠ لغة الأمر الذى يوجد أيضا فى شمال وفى جنوب أمريكا.

وعموما فإن مؤلفه «تشكيلات النمو الثقافى» (١٩٤٥) يعد من أكثر مؤلفاته تكاملا وطموحا حيث سعى إلى الكشف عن عوامل تقدم وتدهور الفن والفكر الإنسانى فكان نموذجا جيدا لدراسة الكيفية أو الطريقة التى تتغير بها الثقافات من خلال بحث مظاهر وأسباب نمو بعض الثقافات على ما يعكسه كتابه «طبيعة الثقافة» (١٩٥٢) الذى جمع فيه مقالاته التى نشرها فى بعض الموضوعات والقضايا مثل النظرية الثقافية والقرابة وعلم النفس الاجتماعى والتحليل النفسى. ومن بعده كتابه «الأسلوب والحضارات» Style and Civilyizations (١٩٧٥) الذى مازال يجذب المتخصص والقارئ العادى إلى اليوم.

★ ★ ★

السؤال المحورى عند الفيلسوف والمؤرخ الأمريكى توماس صامويل كون الذى يعتبر واحدا من أكبر وأهم فلاسفة العلوم كان يدور عن العلاقة بين الفلسفة والعلم. وبالرغم من أن هذا السؤال كان قائما باستمرار وكانت هناك دائما العديد من الاجابات فقد وصفها كون بأنها إجابات تقليدية إذ ركز على منظور جديد يذهب إلى أن هذه العلاقة خاضعة للتفسير التاريخى وقدم فى كتاباته مجموعة من التصورات والمفهومات لفهم النشاط العلمى فهما صحيحا وهى مفهومات وتصورات هزت بعنف التقاليد الموروثة فى التاريخ والفلسفة وعلم اجتماع العلم وامتد تأثيرها إلى مجالات الاقتصاد والسياسة والثقافة بعامة.

ولد كون فى كنكيناتى Cincunnati بأمريكا عام ١٩٢٢ وبدأ حياته كواحد ممن شغفتهم العلوم فبعد أن حصل على درجته العلمية من هارفارد اشتغل فى معمل بحوث الاتصال وهو عمل لم يشبع تطلعاته العلمية فهرب إلى هارفارد فى عام ١٩٤٨ وأصبح منذ عام ١٩٥١ عضوا فى كلية تاريخ العلم ثم صار فى ١٩٦١ أستاذاً لتاريخ العلوم فى باركلى إلى أن التحق فى عام ١٩٦٤ بجامعة برينستون.

ولقد نجح كون نجاحا كبيرا فى إثارة الانتباه إلى معنى العلم المتضمن فى أية حادثة أو واقعة علمية وبخاصة فى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية. فبدلا من الفكرة التقليدية فى نمو العلم القائلة بأنه ينمو تدريجيا نتيجة لعملية تراكمية مستمرة للمعرفة الأمبريقية أعطى تصورا لتاريخ العلم أشبه بتاريخ المجتمع ذاهبا إلى أنه يتضمن نوعا من الانقطاع وعدم الاستمرارية بمعنى أن ثمة تفردات وطفرات وثورات هى ما أطلق عليها الثورات العلمية.

وفى كتابه الذى ظهر فى عام ١٩٦٤ بعنوان «بناء الثورات العلمية» The Structure of Scientific Revolutions مضى يشرح منظوره الجديد الذى قدمه لتطوير العلم وإنماء ادراكه الإنسانى كسبيل لاقترابه اقترابا موضوعيا من الحقيقة. وبالرغم من أن هذا الكتاب كان كتابا عن العلم أكثر منه كتابا فى العلم فقد هز إيمان العلماء فى مدى معقوليتهم ذاهبا إلى أن العلماء سوف يصبحون أكثر

حساسية وأكثر ميلا إلى الانتقاد الذاتى بدلا من خضوعهم المستمر للأنماط التقليدية. وكان بذلك أشبه بالثورة التى اهتز معها كل يقين.

ولقد كان من الطبيعى أن يتعرض لما اعتبره مشكلات متأصلة فى الفهم العلمى مثل مشكلات الاتفاق والقبول التى يتحدث عنها علماء الاجتماع وفى كل هذا فقد وجه انتقادا مريرا لمختلف العلاقات بين المدارس العلمية المختلفة ذاتها مقررا أنها علاقات غير سليمة وغير مرضية والسبب فى ذلك يرجع إلى عدم وجود أرضية مشتركة للبحث العلمى ولا بين النماذج والصيغ والموديلات التى يلجأ العلماء إليها. والتى اعتقد أنها لن تكون مقبولة إلا إذا كانت هناك مثل هذه الأرضية المشتركة وهى قناعة امتدت إلى مناقشته للعملية التعليمية ذاتها حيث ذهب إلى أنها عملية عقيمة لا توجد بها أية إثارة للعقل اكتفاءً بطرقها فى الإملاء والتقلين وهذا ما عرض له فى كتابين رائعين من أهم كتبه ومؤلفاته الأول نشره فى عام ١٩٥٧ باسم The Copernican Revolution: Planetary Astronomy in the Development of Western Thought, 1957. والكتاب الثانى ظهر بعد ذلك بعشرة أعوام فى ١٩٦٧ بعنوان Sources for the History of Quantum Physics. 1967.

★ ★ ★

لاكان، جاك (١٩٠١-) LACAN, JACQUES

إن فكر جاك لاكان يجبه القارئ بمزجه العجيب بين مختلف ميادين المعرفة. فبالرغم من أنه مختصص أصلا فى التحليل النفسى Psychoanalysis والطب النفسى Psychiatry وهما المجالان اللذان يهتمان بدراسة وعلاج الأمراض النفسية والعقلية فقد ارتبط اسمه منذ الستينيات من القرن الماضى (على الأقل) بالبنائية الفرنسية التى مثلت أبرز سمات الحياة الفكرية والثقافية فى فرنسا. كما أن شهرته ذاتها قامت بصفة أساسية باعتباره واحدا من الأربعة الكبار الذين تتردد أسماؤهم عند الحديث عن هذه البنائية وهم كلود ليفى ستروس Lévi-Strauss وميشيل فوكو Foucault ورولان بارت Barthes وجال لاكان نفسه فتجاوز بذلك تلك الحدود الضيقة التى يدور فى داخلها تخصصه الأساسى بمعنى أن هذه البنائية ذاتها كانت مدخله الذى استعان به فى تحليله النفسى ومعالجة مشكلات تخصصه الرئيسى تماما مثلما استعان بها رولان بارت فى نقده الأدبى وجاك دريدا فى تحليلاته أو قراءته للنصوص الأدبية والفلسفية وألثوسير Althusser فى نقده للماركسية وفوكو فى دراسته لانساق القوة أو فكرة القوة وتحليله لمكوناتها وبحوثه فى نظريات ونظم العقوبات، فقد ارتكز كل هؤلاء إلى الفكرة المحورية التى تقوم عليها البنائية على الأقل منذ أن تأسست فى ثوبها العصرى الجديد على أيدى ليفى ستروس والتى تقول بأن هناك بناءات أو أبنية عقلية لاشعورية عامة تشارك فيها جميع الثقافات الإنسانية على تعددها وتنوعها ورغم كل ما قد يكون بينها من اختلافات وتباينات كما اعتبر كل هؤلاء أيضا أن الوسيلة الوحيدة لفهم هذه الأبنية العقلية اللاشعورية هى دراسة النص واخضاعه للتحليل اللغوى.

وبصرف النظر عن الظروف الموضوعية التى نشأت فيها البنائية فى الفكر الفرنسى المعاصر فإن لاكان هو بلاشك أحد المفتونين بهذه الوسيلة ويكون التساؤل هنا هو إذن عن ملامح هذا الافتتان. وبتعبير أدق الكيفية التى طوع بها جاك لاكان منظوره الذاتى للبنائية لخدمة أهداف التحليل النفسى وتطويره؟

فى عام ١٩٣٢ نشر لاكان رسالته للدكتوراه التى كانت عن «الذهان البارانويى وعلاقاته بالشخصية» Paranoiac Psychosis and its Relationships with Personality . ولكنه عاد فنشر بعد سنوات قليلة بحثا بعنوان «المرحلة الانعكاسية» The Mirror Stage (١٩٣٦) أو مرحلة انعكاس الصورة باعتبارها صيغة لوظيفة الذات تناول فيه الدور (الوسائطى) الذى تقوم به الصورة التى توجد لدى الأفراد عن الجسم The Body فى تشكيل الموضوع وبنائه وهو البحث الذى يعتبر من وجهة نظر الكثيرين بمثابة مدخله الأولى إلى حركة التحليل النفسى وهو المدخل الذى طوره على مدى سنوات طويلة ليتضح فى الخمسينيات على وجه الخصوص مدى ارتباطه أو حتى ما يمكن وصفه بأنه نوع من التبنى للنظرية التحليلية على مستوى النظر والممارسة والتطبيق معا. وهو موقف يمكن القول بأنه نما وتطور بشكل تدريجى من خلال مناقشاته ومحاضراته التى دأب على القيام بها فى السيمنارات العامة التى كان يعقدها بصفة منتظمة كل ١٥ يوما وكانت تدور أساسا حول موضوعات وقضايا الطب النفسى التقليدى وكما تجرى ممارسته فى المؤسسات النظمية المعنية.

ولقد كان لهذه السيمنارات الدورية أثر كبير فى لفت نظره إلى الحركة البنائية وبخاصة عندما أخذت تتضح أمامه طبيعة الصعوبات التى يلتقى بها باعتبار أنها تكشف عن عمل اللغة وتأثيراتها وهو ما أدى به إلى أن يركز اهتمامه على دراسة اللغويات طالما أنها ركيزة لا غنى عنها فى تناوله التحليلى سواء للنصوص أو المجالات التى يتحدث عنها.

وفى ضوء هذا تتبدى لنا الخاصية الجوهرية لتفكير جاك لاكان والتى أشرنا إليها عابرا بقولنا انه يمازج مزجا عجيبًا بين مختلف ميادين المعرفة. والواقع أن تفكيره على الرغم مما ينطوي عليه من صعوبة وتعقيد فى العبارة هو نتيجة جهد متصل (لدمج) اللغويات وبخاصة كما تعكسها أفكار ونظريات فردينان دوسوسير ورومان ياكوبسون وكذلك الانثربولوجيا خاصة عند مارسيل موس Mauss وليفى ستروس والمنطق الرمزى عند تشارلس ساندرز بيرس ونظرية المجموعات والفئات وهى النسق الصورى الذى أعطاه أولوية ملحوظة فى التحليل النفسى والموقف أو الاسهام العام للحركة البنائية فى العلوم الإنسانية الذى يرى أن اللاشعور تم تشييده وبناؤه The Unconscious is Strctured as a Language فى شكل لغة. والمهم هو

أن هذا (الدمج) أو على الأقل تحقيق التكامل فيما بين هذى التخصصات والمعارف جميعها هو بالذات ما يشكل مضمون (المشروع) الكبير الذى سعى إليه وهو مشروع يثير بعض الجوانب التى يلزم التوقف أمامها.

فمن ناحية بدا واضحا لجاك لاكان أن لا مهرب أبدًا لدراسات وبحوث التحليل النفسى والطب النفسى إن لم يكن البحوث المعاصرة فى مختلف حقول وميادين المعرفة من الخوض مباشرة فى مسألة الدلالة. فالمؤكد أن «الأشياء» و«الصور» و«السلوكيات» لا يمكن أن تكون دالة بذاتها ولكنها تكتسب دلالتها عن طريق اللغة. بتعبير آخر رأى لاكان أن المجالات المعرفية المختلفة تفرض علينا مواجهة اللغة. إن الأشياء تحمل دلالات فى باطنها ولاشك، ولكن ما كان لها أن تصبح «انساقا دالة» لولا تدخل اللغة ولولا امتزاجها باللغة. أى أنه يصعب تصور إمكان وجود مدلولات وأنساق صور أو أشياء خارج اللغة فعالم المدلولات - كما ذهب رولان بارت - ليس سوى عالم اللغة وإذا كانت التفرقة الجوهرية التى أقامها دوسوسير بين اللسان والكلام قد اسدت ولاشك الكثير من الخدمات لكل من علم الدلالة والبنائية على السواء فلا يقل عن ذلك أهمية التمييز الذى أقامه جاك لاكان بين (الواقع النفسى) و(الواقع) من حيث أن الأول (النفسى) يشار إليه على حين الثانى تتعين البرهنة عليه. وهذه ناحية تعرض لها أيضا رولان بارت وغيره من البنائيين الفرنسيين الذين أكدوا على أن الواقع لا يقبل التمثيل حتى وإن كان تمثله عن طريق الكلام. ولأنه لا يمكن أن يكون موضع تمثيل فهو موضع إثبات فحسب. أى أنه أمر يمكن التعبير عنه بكيفيات مختلفة وإلا فإن علينا أن نذهب مع لاكان إلى أنه المستحيل الذى لا يمكن بلوغه والذى دائما ما يفلت من أى تعبير أو خطاب. أو نقول إنه ليس بالإمكان المطابقة بين مستوى متعدد الأبعاد (أى الواقع) وبين مستوى أحادى البعد وهو اللغة.

والواقع أن بحوث لاكان قد أدت به إلى اكتشاف العديد من العلاقات المتداخلة والمتشابكة. فالتقاء اللغويات والأنثربولوجيا والماركسية والتحليل النفسى وتكاملها جميعا فى تفكيره قد نظر إليه لاكان على أنه قيمة علمية بالغة الأهمية خاصة وإنه لم يعتبر هذا التكامل مجرد مواجهة بين أنساق معرفية متخصصة ولكن التكامل الحقيقى يبدأ (بالفعل) عندما يتصدع التساند بين الدراسات والتصورات القديمة الأمر الذى يتم بعنف

يسبب العديد من الهزات التى يتولد عنها موضوع جديد ولغة جديدة لا علاقة لهما بما كانا عليه فى داخل حقل معين بذاته من حقول المعرفة.

من الناحية الأخرى. نجد أن هذا الموضوع الجديد وهذه اللغة الجديدة يتطلبان إعادة النظر فى كل التصورات والمبادئ والمسلمات التقليدية فى علم النفس الفرويدى وهى مراجعة رأى لاكان ضرورة أن تتم فى ضوء التأثير المتولد عن المزاوجة بين الفرويدية والماركسية والبنائية وهو التأثير الذى يتطلب بالضرورة علاقة بين الواقع النفسى والواقع. تماما كما هو الحال فى الأدب عندما يتطلب الأمر تلك العلاقة بين النتاج والقارئ أو النص أو الأثر الأدبى Oeuvre الذى يرمز إلى اللغة بوجوده الظاهرى على الأقل. إنها نوع من المواجهة إذا جاز لنا استخدام هذا التعبير يقيمها لاكان بين العلوم الإنسانية والحاجة إلى إعادة النظر فى كل مشكلة الوجود والصدق والحقيقة الأمر الذى يستلزم توافر نظرة نقدية فاحصة للثقافة الغربية ومنطلقاتها الأيديولوجية. وهنا فقد بدت لجاك لاكان أهمية المقولات التى قال بها ساندرزبيرس والخاصة بالمنطق والظاهراتية والرياضيات. فالمنطق بالنسبة إلى بيرس هو منطق العلاقات أو هو علم الشروط الضرورية الموصلة إلى الصدق. وكأن هناك إذن نوعا من التوحيد بين منطق بيرس وبين علم الدلائل وهذه هى الناحية المحورية التى اهتم بها لاكان من حيث أن بمقدوره إذاً الكشف عن الدلائل الصادقة والدلائل الكاذبة وإن كان قد تجاوز ذلك إلى القول بأنه يستهدف لا الكشف فحسب عما هو موجود من ظواهر وعلاقات ولكنه يستهدف أيضا الكشف عما ينبغى أن يكون باعتباره علم الفكر النقدى الذى يفتح الأبواب أمام المحتمل والممكن.

وظاهراتية بيرس احتلت موقعا رئيسيا كذلك فى فكر جاك لاكان باعتبارها الدراسة التى تهتم بوصف خصائص الظواهر فى مقولاتها الرئيسية الثلاث وأقصد بها مقولات الوجود بوصفه كيفية وموجودا وضرورة. أما الرياضيات فموضوعها صياغة الفرضيات واستنباط النتائج منها ومن ثم فهى تستدعى الملاحظة بحيث تضع بناءات فى الخيال وفق قواعد مجردة وتلاحظ هذه الأشياء الخيالية لتقف على ما يقوم بين الأجزاء من علاقات.

ومهما يكن من شيء فلاشك في أن أعمال جاك لاكان على الرغم من كل ما تتسم به من تعقيد تعتبر بحق من الأعمال ذات القيمة الحقيقية في العلم الحديث. ويكفي أنه في عام ١٩٥٣ كان من بين المؤسسين للجمعية الفرنسية للتحليل النفسي في الوقت الذي كانت جمعية التحليل النفسي في باريس تخوض معاركها حول قضايا ومشكلات تعليم التحليل النفسي وتدريسه وهو ما أدى في عام ١٩٦٣ إلى تشييد المدرسة الفرويدية بباريس التي كان من بين أهدافها تعديل طرائق إعداد المحللين النفسانيين وهي أهداف نجحت الجمعية في تحقيق بعضها على الرغم من أن لاكان تركها في عام ١٩٨٠ وهي فترة أثمرت على أية حال أهم كتاباته حيث نشر في ١٩٧٣ كتابه الهام «المفهومات الأربعة الأساسية في التحليل النفسي» وألحقه في عام ١٩٧٥ بمؤلفه «الكتابة الاصطلاحية عند فرويد» ثم بعد ذلك «الأنا والنظرية الفرويدية وطريقة التحليل النفسي» (١٩٧٨).

وقد تختلف الآراء حول أفكار جاك لاكان وحول مواقفه من البنائية ومن التحليل النفسي ذاته كما قد يكون هناك غير قليل من المآخذ على هذا كله. ولكن الشيء المؤكد هو أن أعماله تتصف بكثير من الأصالة والعمق حتى أنها طبعت تأثيرها في كل تراث التحليل النفسي مثلما طبعتها أيضا في الأدب والفلسفة والأنثربولوجيا بل والتيار العام للفكر الغربي المعاصر بعامة.

★ ★ ★

يعتبر هارولد دوايت لاسويل من أشهر علماء الاجتماع والسياسة الأمريكيين الذين ركزوا على دراسة علاقات القوة والبحث فى الشخصية والسلوك السياسى والعملية السياسية عموما مما ساعد كثيرا فى تطوير هذه الجوانب وبخاصة أثناء الفترة التى عمل فيها مديرا لبحوث عمليات الحرب والاتصال فى مكتبة الكونجرس الأمريكى فى الفترة ما بين ١٩٣٩ و ١٩٤٢ .

تلقى علومه فى جامعات لندن وجينيف وباريس وبرلين وبخاصة خلال فصول الصيف للسنوات من ١٩٢٣ إلى ١٩٢٥ ونال درجة الدكتوراه فى ١٩٢٦ من جامعة شيكاغو كما قام بتدريس العلوم السياسية فى نفس الجامعة حتى عام ١٩٣٨ عندما ذهب إلى جامعة ييل Yale كأستاذ زائر فى كلية القانون ثم عين استاذا للقانون فيما بين عامى ١٩٤٦ و١٩٧٠ وأستاذا للعلوم السياسية من ١٩٥٢ إلى ١٩٧٠ وأيضا أستاذا للقانون والعلوم الاجتماعية فى مؤسسة فورد ثم أستاذا متفرغا فى برامفورد كوليج Bramford فيما بين ١٩٧٠ و ١٩٧٦ . كما عمل أستاذا فى جامعة نيويورك وجامعة تمبل ومستشارا سياسيا لكثير من الإدارات والوكالات الأمريكية.

والعلوم السياسية بالنسبة إلى لاسويل هى دراسة التغيرات فى توزيع أنماط القيم فى المجتمع ولما كان النفوذ يرتبط ارتباطا ضروريا بعملية التوزيع هذه كانت القوة تمثل بؤرة اهتماماته ومناقشاته وبحوثه. أما القيم فهى عبارة عن الأهداف المرغوبة بينما القوة هى المشاركة فى عملية صنع القرارات وعلى ذلك فنجده يتصور القوة السياسية على أنها تنتج آثارا معينة ومحددة تمارس وجودها على الآخرين ومن هنا فقد برز اهتمامه بدراسة دور الشخصية فى السياسة وإن كان تركيزه علي الفرد كوحدة للتحليل قد أدى به إلى تركيز الاهتمام بالروابط بين الثقافة والسياسة وبين التطور الاقتصادى والنظم السياسية.

ولقد ركز لاسويل فى مؤلفه الشهير «من يحصل على ماذا ومتى وكيف» Politics: Who Gets what, when, How? (١٩٣٦) على دراسة النخبة أو الصفوة التى تمتلك أسباب القوة ولكنه عاد فى مؤلفه «القوة والمجتمع: إطار للبحث

السـيـاسى» Power and Sociery: A Framework for Political Inquiry وهو المؤلف الذى قدمه بالاشتراك مع ابراهام كابلان Kaplan (١٩٥٠) فوسع من دائرة اهتماماته ومناقشاته ليقدم إطارا عاما وأكثر شمولية للبحث السياسى حيث مضى يختبر بعض المقولات الأساسية التى لا غنى عنها فى التحليل السياسى والاجتماعى كمقولة الشخصية ومقولات الشخص والجماعة والثقافة مما يعكس اهتماما عميقا بالجوانب السيكوباثولوجية والمشكلات المصاحبة لعملية البحث عن القوة التى تعترى الساعين إليها والوسائل التى يستخدمونها والتى كثرا ما تسبب الاحباط للآخرين وبخاصة عندما تكون على حساب بعض الأخلاقيات. وعلى أية حال فقد ظهر اتجاهه نحو بعض الصياغات الأخلاقية فى دعوته القائلة بأن العلوم السياسية والبيولوجية بوجه خاص عليها أن تحدد اتجاهها ومواقفها من المسائل السياسية التى تخدم الإرادة الديمقواطية الساعية لتحقيق العدالة وذلك بالرغم من أنه كان يشك كثيرا فى إمكان وجود ديمقراطية على أية صورة من الصور.

وليس من شك فى أنه يرجع إليه جانب كبير من الفضل فى إبراز أهمية النظرية السياسية وامكانيات تطبيقها تحليليا عن طريق استخدام تحليل المضمون بالدرجة الأولى وهذا ما دفعه إلى الإفاضة فى أساليب تحليل المضمون حيث أطلق على تحليل الكلمات مصطلح تحليل الرموز وأبرز الملمح الأساسى فى هذا على أنه يرتكز على الكلمات المفردة وميز فى ذلك بين نوعين من التحليل إما باعتبار كل المفردات (الكلمات) أو اختيار عدد من الكلمات يعتبرها مفاتيح أو رموزا لكل الكلمات الأمر الذى مكنه من توظيف النظرية والانساق السياسية توظيفا تحليليا الأمر الذى انعكس بشكل واضح فى مؤلفه «تحليل السلوك السياسى: مدخل تجريبى» وأيضا فى مؤلفه الذى قدمه بالاشتراك مع دانيال ليرنر Lerner تحت عنوان «الصفوات الثورية العالمية: دراسات فى حركات القهر الأيديولوجى» World Revolutionary Elites: Studies in Coercive Ideological Movements (١٩٦٥) وأيضا مؤلفه عن «مستقبل علم السياسة» الذى صدر قبل هذا الأخير بعامين The Future of Political Science وهو كتاب يعتبر مراجعة لأحد كتبه القديمة التى كان لها توجه معين ونشره تحت عنوان «الأمراض السيكوباثولوجية والسياسة» Psycho-pathology and Politics (١٩٣٠).

★ ★ ★

بول فليكس لازرسفيلد عالم اجتماع أمريكى من أصل نمساوى (ولد فى فيينا عام ١٩٠١) كان لإسهاماته ولمدخله الذى يتسم بالجدة فى دراسة المناهج أكبر الأثر فى دفع العلم وتطويره فى الولايات المتحدة وأوربا. تعلم فى جامعة فيينا فى تلك الفترة الزاهرة التى كانت تموج بالحركات والاتجاهات العلمية والثقافية عندما كان سيجموند فرويد Freud وآدلر Adler فى أوجهما والتى أنشىء فيها أيضا معهد بوهلر للدراسات السيكولوجية.

نال لازرسفيلد درجة الدكتوراه عام ١٩٢٥ فى الرياضيات التطبيقية Applied Mathematics وبعد أن قام بتدريس هذا التخصص قام بتأسيس مركز للبحوث التطبيقية فى عام ١٩٢٩ فى فيينا حيث برز اهتمامه بقضية تطوير مناهج البحث التى تبنى على الدراسات الأمبريقية وليس أدل على اهتمامه بتطبيقات علم الاجتماع من أن آخر مؤلفاته كان كتاب «مقدمة لعلم الاجتماع التطبيقى An Introduction To Applied Sociology (١٩٧٥) قبيل وفاته بعام واحد.

ولقد مكنته إحدى المنح من مؤسسة روكفلر من المجئ إلى أمريكا التى منحته الجنسية الأمريكية ولم يمض وقت طويل حتى أصبح واحدا من أكبر العلماء انتاجا ومن أبعدهم تأثيرا فى العلوم الاجتماعية بأمريكا إذ أصبح مديرا لمكتب بحوث الاتصالات اللاسلكية وهو أحد المشروعات التي تمولها مؤسسة روكفلر وتشرف عليها جامعة برينستون خلال الفترة من ١٩٣٧ إلى ١٩٤٠ وعندما انتقل هذا المشروع إلى جامعة كولومبيا فى هذا العام استمر مديرا وعين فى قسم الرأى العام بالجامعة نفسها ولكن تحول المشروع فيما بعد إلى اسم مكتب البحوث الاجتماعية التطبيقية وظل تحت رئاسته حتى عام ١٩٥٠ ومن بين زملائه خلال هذه الفترة التى امتدت حتى الستينيات صامويل ستوفر Stouffer ورايموند بودون وروبرت ميرتون وعندما أصبح استاذا متفرغا عام ١٩٧٠ انتقل فى عدد من الجامعات كأستاذ زائر فزار جامعة بيتسبرج Pittsburg وجامعة أوسلو Oslo (٤٨ – ١٩٤٩) والسربون وكان أول عالم اجتماع أمريكى يحظى بدرجة شرفية من السربون.

استخدم لازرسفيلد علم الاجتماع الرياضى منهجا لقياس الكم ويعتبر مزج البحث الاجتماعى الكيفى Qualitative بالبحث الكمى Quantitative من أهم اسهاماته التى كانت سببا فعالا فى تطوير علم الاجتماع وفى بحثه للمشكلات التى شغلت تفكيره وفى مقدمتها مشكلات البطالة والاتصال الجماهيرى والسلوك السياسى بالإضافة إلى بحوث التسويق ومختلف القضايا النظرية والمنهجية المرتبطة بعلم الاجتماع وغير ذلك من القضايا والمشكلات الاجتماعية التى تفجرت فى النصف الثانى من القرن العشرين فقد كان علم الاجتماع بالنسبة إليه يتمثل فى القيام بدور كاشف الطريق أمام الباحثين فى العلوم الاجتماعية أى دور الوسيط بين الفيلسوف الاجتماعى المراقب والمتأمل والباحث الأمبريقى الذى يعتمد أساسا على مختلف الأساليب الفنية فى البحث التى تدعمها النظرية السوسيولوجية ذاتها.

وربما كانت من أهم كتاباته «الاختيار الجماهيرى» The Peoples Choice (١٩٤٨) ذهب فيه إلى ميل أصحاب الاتجاه الواحد إلى الاتصال ورؤية بعضهم أكثر من الاتصال بمعارضيهم فالإنسان يميل إلى مخالطة أشباهه وكتابه «الاتصال الجماهيرى» Mass Communication (١٩٥٥) الذى قدمه مع كاتز Katz وأيضا كتابه بالاشتراك مع موريس روزنبرج Rosenberg «لغة البحث الاجتماعى» The language of Social Research (١٩٥٥).

* * *

عالم الاجتماع والأنثربولوجيا الاجتماعية البريطاني وأحد كبار المتخصصين فى دراسة ثقافات الشرق وجنوبى أسيا والمؤسس الأول لتيار البنيوية فى العلوم الاجتماعية فى العالم الانجلوأمريكى فى مقابل كلود ليفى ستروس مؤسسها فى فرنسا وأوروبا عموما. درس الرياضيات والهندسة فى مالبورو وفى كامبريدج حيث نال درجته العلمية الأولى عام ١٩٣٢ ولكنه التقى بما لينوفسكى الذى كان وقتذاك فى مدرسة لندن للاقتصاد والعلوم والسياسية فدرس على يديه وغير اتجاهه إلى الانثربولوجيا.

كان منشغلا بالبحث والعمل فى بورما Burma عندما اندلعت الحرب العالمية الثانية فانخرط فى الحرب مع جيش بورما البريطانى وحدث أن ضاعت أصول رسالته مما جعله بعد ذلك يعتمد على بعض المصادر الثانوية وعلى أية حال فقد نشر هذا العمل الذى يعتبر انجازه الأول الكبير بعد ذلك بعدة سنوات تحت عنوان «النظم السياسية فى أعالى بورما» Political Systems of Highland Burma (١٩٥٤). وفى أثر هذا قام أيضا ببعض الدراسات الحقلية فى كردستان Kardistan وسيلان Cylon وبورونيو Borneo وسيريلانكا Srilanka ونشر عنها بعض التقارير الأثنوجرافية التى كانت أساسا لبعض مؤلفاته المبكرة. وبالرغم من أن ليتش تشرب مواقف وتقاليد المدرسة الوظيفية كما نجدها عند مالينوفسكى فقد تأثر فى وقت لاحق فى الخمسينيات بكلود ليفى ستروس وبدأ معه حوارا طويلا كان سببا مباشرا فى لفت أنظار الانثربولوجيين البريطانيين إلى أعمال كلودليفى ستروس المهمة وإلى البنائية الفرنسية عموما التى سرعان ما أصبح (ليتش) واحدا من أهم نقادها بالرغم من أن البعض كان يعتبره هو نفسه من ضمن البنائيين.

ولقد عمل ليتش أستاذا فى مدرسة لندن فى الفترة من ١٩٤٧ إلى ١٩٥٣ ثم فى كامبريدج (٥٣ - ٧٨) وخلال هذه الفترة كان كدأبه مغرما بالنقاش وبالتحدى ومثيرا للجدل ومع أنه كان رئيسا لرابطة الإنسانيين لبعض الوقت وانتخب فى عام ١٩٧٢ للأكاديمية البريطانية ونال لقب سير (فارس) عام ١٩٧٥ إلا أنه كتب عددا من المقالات ينتقد فيها فكر رادكليف براون اعتبرت بمثابة تحد للاتجاه

السوسيولوجى فى الانثربولوجيا البريطانية الذى يمثله رادكليف براون وأتباعه إذ اتهمهم ليتش بأنهم يأخذون بنظرة وصفية واستاتيكية مغالية فى نظرتهم وتفسيرهم للعلاقات ونظرة آلية وميكانيكية للطقوس والأيديولوجية وذلك على الرغم من أن ليتش نفسه لم يكن أبدا صاحب نظرية بالمعنى التقليدى المفهوم.

وهناك على الأقل ثلاثة أعمال رئيسية لادموند ليتش إلى جانب العدد الكبير من الكتابات والمؤلفات والمقالات التى كتبها عن الثقافة والاتصال والرمزية الدينية والنظرية العامة للقرابة بالاضافة إلى نقده للاتجاهات التطورية والنظرية السوسيولوجية بعامة: وأول هذه الأعمال الرئيسية هو مؤلفه «إعادة التفكير فى الانثربولوجيا» Rethinkingh Anthvopology (١٩٦١) الذى أكد فيه أن هذا العلم بدأ يتجمد ويتراجع بل ويتخلف عن الواقع الحالى والتاريخى بالاضافة إلى اتهامه العلم والعلماء بالرجعية وبمعاداة أسس الوحدة الإنسانية ولاتجاه التاريخ.

أما الكتاب الثانى فقد نشره تحت عنوان «التكوين بوصفه اسطورة» Genesis as Myth (١٩٧٠) فقد انشغل فيه بشرح ونقد وتعديل نظريات كلودليفى ستروس فى التصنيف وفى الأساطير وإن كان قد تعرض فيه أيضا لبعض الموضوعات التى آثارها المرتبطة بالكتاب المقدس (الانجيل) والتى اخضعها للتحليل من وجهة نظره. وأخيرا هناك الكتاب الهام الثالث الذى يمثل عمله النظرى الكبير باسم «الأنثربولوجيا الاجتماعية» (١٩٨٢) والذى واصل فيه بوجه عام حواراته مع ليفى ستروس والبنائية الفرنسية عموما.

ولقد ترك أدموندرونالد ليتش لفيفا من الأنثربولوجيين المشهود لهم من بينهم فردريك بارث Barth ونيريالمان Yalmen وغيرهما ممن تأثروا باتجاهاته فى دراسة التكوينات الاجتماعية ومشكلات الطوائف الدينية والاقتصادية فى بعض المجتمعات وما ارتبط بها من قضايا التدرج والحراك الاجتماعيين.

★ ★ ★

ربما كان كلود ليفى ستروس أبرز البنائيين الفرنسيين المعاصرين على الأقل فى ثوبها الحديث بعدما ظهرت فى مراحل مختلفة على أيدى فردينان دوسوسير. كما أنه أحد أقطاب هذه البنائية التى طبقت على أوسع نطاق فى تحليل الأنساق الثقافية والظاهرة الثقافية عموما وبخاصة أنساق القرابة والأساطير فى ضوء العلاقات البنائية التى تقوم بين عناصرها. فكانت بحق بنائية أثرت لا فى علوم القرن العشرين الاجتماعية فحسب ولكن أيضا فى دراسة الفلسفة والأديان المقارنة والأدب فى مختلف الأنحاء.

ولد ليفى ستروس فى عام ١٩٠٨ وتلقى تعليمه الثانوى في باريس فى ليسيه جانشون دى سالى وبعد ذلك كانت دراساته فى القانون والفلسفة فى جامعة باريس (١٩٢٧ - ١٩٣٢) وبعدها قام بالتدريس فى إحدى المدارس الثانوية واتصل بجان بول سارتر Sartre وندواته ومحاضراته الثقافية ثم سافر إلى البرازيل وعمل أستاذاً للاجتماع فى جامعة ساوباولو Sao-Pailo (١٩٣٤ - ١٩٣٩) حيث بدأ اهتمامه بالانثربولوجيا وبدأ رحلاته فى الأمازون ولكنه عاد إلى فرنسا (١٩٣٩) ومن بعدها سافر إلى الولايات المتحدة الأمريكية حيث اشتغل أستاذا زائرا فى المدرسة الجديدة للبحث الاجتماعى فى نيويورك (١٩٤١ - ١٩٤٥) وهى فترة تأثر خلالها ببحوث ودراسات العالم اللغوى ياكوبسون Jakobson وظل يعمل كمستشار ثقافى فى السفارة الفرنسية فى واشنطن (٤٥ - ١٩٤٨) ثم بعد عودته إلى فرنسا عين مديرا مساعدا لمتحف الإنسان فى باريس (١٩٤٩) ثم كان مديرًا للدراسات العليا بالمدرسة التطبيقية فى باريس (١٩٥٠ - ١٩٧٤) وكان قد عين استاذا لكرسى الانثربولوجيا الاجتماعية فى الكوليج فرانسيز (١٩٥٩) وانتخب عضوا بالأكاديمية الفرنسية منذ ١٩٧٣ .

وتمثل بنائية كلود ليفى ستروس محاولة متعمقة لفهم الانساق الثقافية واختزالها إلى ما اعتقده الأساسيات أو الجوهريات أو العناصر الجوهرية فى الثقافات حيث تتمثل نظرته إلى الثقافات فى أنها أنساق اتصال ونماذج بنائية تقوم على اللغويات ونظرية المعلومات والتحليل اللغوى هما بالذات اللذان بمقدورهما تقديم تفسير لها.

والحقيقة أنه يصعب فهم ليفى ستروس لأن هناك من يعتقد أنه كان يسعى إلى تقديم نسق تفسيرى شامل للعالم وهذا خطأ شائع فى الواقع لأنه لم يقدم على ذلك وربما كان ما أعطى هذا الفهم أو الايحاء أن أعماله كانت تعكس نوعا من المحاولة للوصول إلى ذلك وهو ما ينعكس في كتاباته التى دارت حول معظم المجالات المختلفة للثقافة.

ولقد ارتكزت كتابات ليفى ستراوس على إطار أساسى لنظرية المعرفة تدور من خلاله كل تفسيراته للثقافة والأساطير وهو اطار يعطى الأولوية للبيئة السوسيولوجية على البيئة الطبيعية فى تفسير الأحداث والتناقضات فى الثقافة الإنسانية. ونحن نلاحظ أن التفسيرات المعاصرة لمصير الجنس البشرى تتأرجح بين قطبين أو نموذجين تفسيريين فالبيئة الإنسانية سواء أكانت البيئة الطبيعية تعكس نوعا من الحتمية الضرورية التى تقع فى داخلها مختلف الظواهر والأحداث ولكنه أميل مع ذلك إلى أن البيئة السوسيولوجية هى ما يعتبر أفضل مدخل يمكن أن يقدم تفسيرًا لما يوجد من اختلافات ففى تصوره أن الاختلافات المتعددة والمتكثرة فى الثقافة الإنسانية ليست اختلافات تعسفية أو عشوائية وإنما هى نتيجة للتفاعل المستمر بين نوعين من المجالات اللذين يمثلان ضغوطا أساسية تتمثل فيما يوجد فى العالم الخارجى من ناحية وفى العالم الداخلى من ناحية ثانية وهذا ما أطلق عليه (الروح الإنسانية L'Esprit Humain) أو العقل البشرى. وفى اعتقاده أن العقل البشرى ليس وحدة أو ذاتية ميتافيزيقية وإنما هو شىء مادى أو الجهاز العصبى للإنسان. وما الثقافة إلا نتاج التفاعل بين العالم الخارجي وامكانات وقدرات هذا الجهاز العصبى أى العقل. وربما من هنا كان تصور ليفى ستروس الأساسى القائل بأن الانثربولوجيا البنائية هى مزاج بين علم النفس والانثربولوجيا وبالذات الانثربولوجيا الإدراكية Cognitive على وجه الخصوص. أما معنى ذلك فهو أن لكى نفهم الثقافة فإنه يلزم من ثمة أن نفهم كلا من العقل البشرى والعالم الخارجى وهذه مسألة معقدة وفى غاية الصعوبة.

ولكن الناحية الثانية لكى نفهم كلود ليفى ستروس فهى الوقوف على تصوره للتاريخ وهنا يلزم أن نتذكر شيئا معينا هو أنه كان يعتبر فى وقت من الأوقات واحدا من الماركسيين وأن هناك من المفكرين والباحثين من ينظر إليه هذه النظرة حتى

اليوم. ولكن فحص كتاباته جيدا سوف يكشف عن حقيقة أنه لا ماركسى -Anti Marxist والدليل على ذلك يقوم فى تصوره للتاريخ وهو تصور لا تاريخى -Anti Historicist بالدرجة الأولى.

بالنسبة إليه ليس هناك ما يوصف بأنه قوانين تاريخية أو قوانين للتاريخ. وفى تصوره أن التاريخ عملية احتمالية أشبه بعجلة الروليت تلقى ببعض الظروف والأحداث التى تسمح للثقافات أن تتراكم ويكون لها آثارها التى تختلف فى الزمان والمكان. ولأن التاريخ بهذا الشكل يكون من الصعب التنبؤ به. ولأجل هذا فلابد من الاحتفاظ إذن بسجلاته ووثائقه وأحداثه بقدر ما تسمح الظروف وبتعبير آخر التاريخ يقدم للإنسان فقط تلك التجارب التى يستطيع الانثربولوجى أن يعود إليها ولكن ما وراء التاريخ أو ما يحدث فى باطنه فإنه مسألة أخرى. وهذه تمثل إحدى المشكلات التى تقوم بين علوم الإنسان Science de l'Homme والعلوم الطبيعية. أضف إلى ذلك فارقا آخر هو أن العلم الطبيعى يلتصق فى محاولة فهمه والتعامل معه بمستوى الشرح والتفسير على حين تسعى علوم الإنسان بالضرورة إلى الفهم وإلى الوقوف أو التعرف على المعنى. ومن هنا اعتبرت قضية الفهم والمعنى قضية محورية عنده إن لم تكن القضية الرئيسية.

وليس من شك فى أن المتتبع الدقيق لكتابات ليفى ستروس سوف يكتشف بنفسه هذه الجوانب كلها. ومن أمتع دراساته التى حاول بها الوصول إلى هذا التصور دراسته عن القرابة التى تعتبر أول أعماله الضخمة التى نشرها بعنوان «الأبنية الأولية للقرابة» Les Structures Elémentaire de la Parenté الذى ظهر عام ١٩٤٩ (ترجم إلى الانجليزية فى عام ١٩٦٩) وهو كتاب اشتمل على تحليل للعوامل البيولوجية والثقافية فى الزواج والروابط القرابية وفى المصاهرة وما ينجم عنها من التزامات. وباختصار يقوم الكتاب على إحدى الفرضيات البنائية الأساسية التى تذهب إلي أنه فى كل مجتمع وحتى فى تلك الحالات التى يبدو فيها الزواج كأنه نتيجة لقرار فردى أو مواقف عاطفية أو اقتصادية فإن ذلك لا يكون بعيدا أبدا عن القرابة والعوامل القرابية و روابطها. ولابد أن نتذكر هنا الدور الذى تقوم به الهدية Gift التى تكلم عنها مارسيل موس Mauss ودور الزواج الداخلى والزواج

الخارجى وحتى تقديم بعض الثقافات الزوجات كهدية أو لإكرام الضيف وكذلك تقديم بعض الثقافات منتجاتها كهدايا وأثر ذلك كله فى التماسك الإجتماعى.

ولكن من المهم القول بإن تأثير مارسيل موس ولويس مورجان وريفرز إذا كان يظهر بمثل هذا الوضوح فى دراسات ليفى ستروس للقرابة فليس الحال كذلك بالنسبة إلي دراساته للأساطير التى يمكن اعتبار العالم الروسى فلاديمير بروب Propp هو المؤثر المباشر فى ليفى ستروس فى هذه الناحية.

لن أخوض فى هذه النواحى لغموضها ولتشعبها ولكن يكفى الإشارة إلى مؤلفه الضخم «أسطوريات» Mythologiques (١٩٦٤ - ١٩٧١) الذى يتكون من أربعة أجزاء تضم أفكاره المحورية التى بناها على دراساته لأساطير قبائل الهنود الأمريكيين وتعكس طريقته فى التحليل. وفى تصور ليفى ستروس أنه لا توجد هناك أية مضامين خفية Latent أو رسالة معينة أبعد مما تعكسه المعانى الواضحة وإنما معنى الأسطورة يتمثل فى حقيقة أن هناك أساطير أخرى قد تكون مشابهة أو مخالفة فى نفس الموقف ونفس الاتجاه. وبتعبير آخر أن كل ثقافة لها نسقها ولها أساطيرها مما يلزم معه أن تتم دراسة الأسطورة فى ذات الثقافة التى تنتمى إليها حيث يسهل تحليلها والتعرف على مكوناتها من خلال النسق الأسطورى الخاص به وربما بهذه الوسيلة يمكن التعرف على المشابهات بين مختلف الانساق بالرغم من كل تأثيرات الانتقال والانتشار الثقافيين.

ولقد تعددت كتابات ليفى ستراوس ما بين الكتب والمؤلفات وعشرات المقالات التى تناولت مختلف الموضوعات فى مختلف المجالات. ففى الخمسينيات من القرن الماضى ظهرت مسيرة رحلاته فى مؤلفه «الأفاق الحزينة» Tristes Tropiques الذى كان بمثابة ترجمة لحياته العلمية فى مختلف الثقافات والشعوب ولبنائه وتكوينه العلمى (١٩٥٥) ومثل بذلك قطعة أوتوجرافية أدبية رائعة. ثم ظهر بعد ذلك كتابه الممتاز «الانثربولوجيا البنائية» Anthropologie Structurale (١٩٥٨) و«الفكر المتوحش» La Pansée Savage (١٩٦٢) و«الطوطمية اليوم» Le Totêmisme Au-jourdhui فى العام نفسه ثم «الطوطمية» Totemism (١٩٦٩) ثم بعد ذلك ظهر له «طريق الأقنعة» La Voie des Masques (١٩٧٥) في جزءين ضمنهما تحليلا للفن والعقيدة والأساطير بين هنود الساحل الشمالى الغربى لأمريكا وفيه مقابلة بين

الفن البدائى والفن فى المجتمعات المتقدمة التى أطلق على فنها تسمية «الفن المتحضر».

وبالرغم من كل هذا هناك ناحية من الصعب عدم الاحاطة بها ونحن بصدد فهم ليفى ستروس وتتمثل فى أن هناك ميلا إلى الربط فى كثير من المواضيع والأماكن بين ليفى ستروس وبين دور كايم عبر مارسيل موس وهى مسألة تستحق إمعان النظر خاصة وأنه هو نفسه يعلن تأثره بالأنثربولوجيا الانجليزية والانجلوساكسونية عموما أكثر من المدرسة الفرنسية فى علم الاجتماع التى تزعمها دور كايم وموس من بعده. إضافة إلى تقديره الذى كان يعبر عنه كثيرا لرادكليف براون ولوى وريفرز ومن قبلهم فرانز بواس. فإلى أى مدى يعتبر هذا الربط صحيحا؟ الواقع أن اهتمام بواس بالنظرية ومحاولته الوصول إلى النظرية هى ما يمكن اعتباره النقطة الجوهرية التى تفصل بين الاثنين. ولئن كان الأمر كذلك فيكون التساؤل المنطقى هو: من أين إذن أتت التأثيرات الأساسية فى فكره؟ والجواب يكمن ببساطة فى البنائية الفينولوجية Structural Phonology حيث بدا تأثره برومان ياكوبسون واضحا أشد الوضوح منذ أن التقيا فى نيويورك.

ومهما يكن من أمر فمن الصعب حقا إعطاء تقييم دقيق لتأثير ليفى ستروس على الانثربولوجيا المعاصرة نظرا لتشعبه ولكن من المهم القول إن بنائيته وجدت انتشارا كبيرا منذ الستينيات وبخاصة عندما وقعت أحداث الطلبة عام ١٩٦٨ التى أعادت اهتمامه بالماركسية وذلك إلى درجة أن تأثيره قد امتد إلى كل الاتجاهات البنائية الفرنسية فاستفاد جاك لاكان على سبيل المثال من مبدئه فى الوظيفة الرمزية كما أنه أوحى لرولان بارت بمدخله لقراءة الأساطير ودراستها فى الوقت الذى اكتشف جاك دريدا فيه صدى لجان جاك روسو ورؤيته للعصر الذهبى وحنينه الرومانتيكى إليه بعالمه الأسطورى البعيد والسعيد.

★ ★ ★

فيلسوف ومنطقى وأحد كبار فلاسفة الأخلاق الأمريكيين المرموقين الذين أسهموا اسهاما بالغا فى إثراء نظرية المعرفة فقد اتسمت نظريته فى الأخلاق والمعرفة بالنزعة التصورية والنزعة البراجماتية فى داخل إطار من الفلسفة الكانتية إذ سعى إلى تطوير التصورات الفلسفية بالطريقة التى سبق إليها كانت Kant باعتبار أنها متأصلة فى الحقيقة الأمبريقية ولهذا فقد ذهب إلى أن المعرفة لا تكون ممكنة إلا بوجود إمكانية الخطأ مما يعنى صراحة أنه أقدم على تحوير النظرة التقليدية التى تقوم على التجربة الحسية التى ينظر إليها على أنها ضمان المعرفة الحقة واليقينية فيما يتعلق بالواقع وبالحقيقة. لأن الفرد لا يكون فى أغلب الأحيان مخطئا بالنسبة إلى الانطباعات التى تأتيه عن طريق الحواس.

ولقد ولد لويس فى عام ١٨٨٣ فى ستونهام الأمريكية وتخرج فى جامعة هارفارد حيث قام بالتدريس من عام ١٩٢٠ إلى أن تقاعد فى عام ١٩٥٣ بعد أن ظل أستاذا للفلسفة منذ عام ١٩٣٠ . وخلال هذه الرحلة كان من الطريف والجميل أيضا أن جامعة كولومبيا كرمته فى عام ١٩٥٠ باعتباره أحد كبار المناطقة المشهود لهم. ثم حدث أيضا بعد ذلك بعدة سنوات أن قدم له المجلس الأمريكى للتعليم مبلغ ١٥ ألف دولار فى عام ١٩٦١ كجائزة له واعترافا بفضله. والواقع أنه قد ترتبت على جهوده ومواقفه إحدى النتائج الهامة فيما يتعلق بالمشكلات الابستمولوجية (المعرفية) التي اعتبرها لا تعدو أن تكون مشكلة تفسير ذاتى يقوم به الإنسان عن تجاربه وخبراته الحسية. أما فيما يتعلق بمسألة الحكم واليقين فإن اليقين الوحيد الممكن فى رأيه هو ما يكون مستمدا مما أطلق عليه «الحكم المنتهى» Terminating Judgment الذى يتضمن قضية عن الواقع سبق التحقق من صدقها تجريبيا. والحكم المنتهى بالنسبة إليه لابد أن يكون متعلقا بالظواهر بينما يتعلق الحكم غير المنتهى بغير ذلك من القيم والموضوعات الأخرى. وإن كان اليقين والمعنى قد يوجدان مع ذلك فى الحكم غير المنتهى (أو الحكم المعلق) إنما فى حالة ما إذا كان الحكم المنتهى يساندهما ويقف وراءهما.

ومن ناحيـة ثانيـة انتقـد لويس المنـطق الصـورى المعاصـر مـسـتـخـدمـا أيضـا تطبيقات مادية وتجريبية وبدلا منه قدم نسقا منطقيا يقوم على التضمينات المحددة بمعنى أنه رفض تمامـا تلك الأنسـاق التى لا ترتبط بمـا هو مـتـضـمـن فى الخـبـرة والتجربة. أمـا المقولات المجـردة التى يزخـر بها المنطق التقليدى فهى بذاتها موضـوع للتغير. ومهما يكن من أمـر فقد أفاض لويس فى شـرح منطقه وفلسفتـه فى عدد من أعـمـاله الـرئيـسيـة من بينهـا «المنطق الرمـزى» Symbolic Logic (١٩٣٢) وكـتـاب «تحليل للمـعرفة والتقييم» An Analysis of Knowledge and Valuation (١٩٤٧) وكتاب «أساس وطبيعة الحق» The Ground and Nature of Right (١٩٥٥).

★ ★ ★

فى مقدمة الأنثربولوجيين الأمريكيين الذين أثروا تأثيرا كبيرا فى تطور الأنثربولوجيا الأمريكية والأنثربولوجيا الثقافية على وجه الخصوص باعتباره واحدا من العلماء المبرزين المهتمين بعلم آثار ما قبل التاريخ والأثنولوجيا، حتى أنه أصبح حجة فى مجموعات وآثار الهنود الأمريكيين وفى قبائل وشعوب الأقيانوس.

ولد رالف لينتون فى فيلادلفيا Philadelphia عام ١٨٩٣ ودرس فى كلية سوار ثمور Swarthmore حيث ظهر اهتمامه وشغفه بالآركيولوجى «علم آثار ما قبل التاريخ» وقام بجهد كبير فى نجاح إحدى البعثات التى أرسلت إلى نيومكسيكو وكلورادو وجواتيمالا (١٩١٢ و ١٩١٣). نال درجة الدكتوراه فى عام ١٩٢٥ وقام ببعثة أخرى إلى مدغشقر وشرق أفريقيا حيث درس التانالا Tanala (من ١٩٢٥ إلى ١٩٢٧) وهى رحلة تمخضت عنها كتاباته الرئيسية التى امتزجت بنتائج بعثته الأخرى إلى جزر ماركيز Marquesas (١٩٢٠ - ١٩٢٢) التى اعتبرت بمثابة نقطة تحول رئيسية فى حياته إذ أصبح مديرا لمتحف التاريخ الطبيعى فى شيكاغو (١٩٢٢ - ١٩٢٨) وتمكن من دراسة عدد من القبائل الهندية الأمريكية. كما عمل فى عدد من كبريات الجامعات الأمريكية فكان أستاذا فى جامعة ويسكونسن وجامعة ماديسون (٢٨ - ١٩٣٧) وجامعة كولومبيا (٣٧ - ١٩٤٦) وجامعة ييل (٤٦ - ١٩٥٣) حيث توفى فى أواخر شهر ديسمبر من العام نفسه. وتتميز هذه الفترة الأخيرة من حياته بأنه عمل مع مالينوفسكى والمحلل النفسى ايبرام كاردينيير فى بضعة أعمال مشتركة عن العلاقة بين الثقافة والشخصية حيث اعتمدوا بصفة رئيسية على التقارير المختلفة عن المجتمعات البدائية وبعض القرى الأمريكية الحديثة.

والواقع أنه نتيجة لهذه الجهود جميعها فقد نشرت له عدة مؤلفات رئيسية اشتملت على نتائج بحوثه من ناحية وعلى مواقفه النظرية من بعض المشكلات الأساسية فى العلم من ناحية ثانية. فنتيجة لجهده المشترك مع كاردينيير ومالينوفسكى ظهر كتاب «الحدود النفسية للمجتمع» The Psychological Frontier of Society الذى كتب له لينتون مقدمة ضافية عكست مفهومه عن المجتمع الذى عبر عنه بأن النظم الاجماعية لا تعمل إلا باعتبارها أجزاء من كل أوسع وقصد

بذلك الثقافة الكلية الشاملة للمجتمع فى الوقت الذي انتقد فكرة بقاء النسق واستمراره وذلك من خلال تحليله ومناقشته لمفهوم التكامل الثقافى حيث ذهب إلى أن الوظيفيين قد فشلوا فى تحديد ما يقصدون به مؤكدا أن العلاقة بين الشخصية والثقافة تشبه العلاقة ذاتها بين الفرد والنظام الاجتماعى فأى فهم لشخصية الفرد أو للمركب الاجتماعى أو الثقافى الذى هو جزء منه يتطلب تحليلا دقيقا للعلاقة المتبادلة بين الجزء والكل واعتماد كل منهما على الآخر وهى المشكلة التى ظهرت لدى علماء الاجتماع وهم يتحدثون عن علاقة الفرد بالنظام الاجتماعى.

ويعتبر كتابه «دراسة الإنسان» The Study of Man: An Introduction (١٩٣٦) مؤلفه الرئيسى وربما أهم اسهام نظرى له باعتباره مركبا محكما من النظريات الانثربولوجية والاجتماعية والسيكولوجية وإن لم يعتبر الأسرة ركنا من أركان البناء الاجتماعى كما ذهب بعض الأنثربولوجيين الكبار، كما طور فى كتابه «الخلفية الثقافية للشخصية» The Cultural Background of Personality الذى ظهر فى عام ١٩٤٠ نظرية الشخصية الثقافية التى تعتمد على المكانة والمنزلة الاجتماعية وهى عناصر أساسية تشكل النمط الأساسى للشخصية فى أية ثقافة. أما عمله الأخير (نشر عام ١٩٥٥ بعد وفاته بعامين) فقد كان بعنوان «شجرة الثقافة» The Tree of Culture (وإن كان البعض يترجمه إلى شجرة الحضارة) فقد دار حول أصل الإنسان والتأثيرات البيولوجية على السلوك الثقافى. وعموما فإن ما لا شك فيه هو أن رالف لينتون يعتبر علامة بارزة فى تطور الأنثربولوجيا الثقافية بكل المقاييس.

★ ★ ★

سيمور مارتن ليبست عالم اجتماع أمريكى ومنظر وعالم سياسة له اسهاماته المميزة فى النظرية الاجتماعية والسياسية واعتمدت شهرته العالمية الواسعة على آرائه وبحوثه ودراساته التى دارت حول السياسة المقارنة والبناء الطبقى وأشكال الصفوات وأنماطها والأحزاب السياسية والعملية السياسية بعامة.

وقد ولد ليبست فى نيويورك عام ١٩٢٢ وبعدما تخرج فى سيتى كوليج (١٩٤٣) عمل محاضرا فى تورنتو (٤٦ – ١٩٤٨) ثم أستاذا مساعدًا فى جامعة كاليفورنيا فى باركلى حتى عام ١٩٥٠ . وفى هذه الأثناء حصل على درجة الدكتوراه (١٩٤٩) من جامعة كولومبيا حيث ظل من عام ١٩٥٠ إلى ١٩٥٦ وعمل أثناء ذلك مديرا مساعدا لمكتب البحث الاجتماعى التطبيقى (٥٤ – ٥٦) الذى كان بول لازرسفيلد قد أسسه. وفى الفترة من عام ٦٢ إلى ١٩٦٦ عمل مديرا لمعهد الدراسات الدولية ثم أصبح أستاذا فى هارفارد من العام ١٩٦٦ إلى أن أصبح استاذا للعلوم السياسية وعلم الاجتماع فى معهد هوفر بجامعة ستانفورد منذ عام ١٩٧٣ .

وبوجه عام يعتبر ليبست من بين المهتمين بشكل أساسى بمشكلات المجتمعات الصناعية الحديثة وكان يعتمد فى هذا على اختبار الفروض والنظريات فى ضوء البحث المقارن حيث كان ينفر بشدة من إطلاق التعميمات دون الاستناد إلى مثل هذه البحوث والدراسات. وتكشف عناوين كتبه ومؤلفاته عن المحاور الرئيسية والاتجاهات الأساسية لفكره النظرى. فقد قدم «الاشتراكية الزراعية» Agrarian Socialism (١٩٥٠) و«الديمقراطية الاتحادية» Union Democracy (١٩٥٦) وهو كتاب قدمه بالاشتراك مع كولمان Colmanوترو Trow ويشتمل على دراسة للاتحادات العمالية وتنامى قوة الطبقة الوسطى وأصحاب الياقات البيضاء كما قدم بالاشتراك أيضا مع بندكس Bendix كتابين أخرين هما «الحراك الاجتماعى فى المجتمع الصناعى» Social Mobility in Industrial Society (١٩٥٩) و«علم الاجتماع السياسى» Ploitical Sociology (١٩٦٤) ثم مع بندكس أيضا كتاب «الطبقة والمكانة والقوة» Class, Status and Power وهو دراسة مميزة للتدرج الاجتماعى وأنماطه وكذلك كتابه «الإنسان السياسى» Political Man (١٩٦٠) وهو

كتاب فاز بجائزة ماكيفر واشتمل على دراسة للسلوك الانتخابى وللمتطلبات الاجتماعية الواجب توافرها لقيام الحكومة الديمقراطية وخاصة فى المجتمعات الغربية التى تلعب فيها دورا بالغ الأهمية عمليات التنمية الاقتصادية على وجه الخصوص.

ولكن منذ أواخر الستينيات تقريبا أخذت مؤلفاته تتلون بطابع خاص أكثر براجماتية فظهر مؤلفه «الثورة والثورة المضادة» Revolution and Counte Revolu-tion (١٩٦٨) و«سياسة اللاعقل» the Politics of Unreason الذى قدمه بالاشتراك مع ايرل راب Raab (١٩٧٠) وفاز عنه بجائزة ميردال بالاضافة إلى «العصيان والثورة فى الجامعة» Rebellion in the University (١٩٧٢) و«الأكاديمى المنقسم» The Divided Academy (١٩٧٥). وجميعها كتب طورت كثيرا من نظريته فى أنماط الصفوة وفى مجال السياسة بعامة وبخاصة كتابه الذى نشره فى عام ١٩٧٨ «ظهور الائتلاف فى السياسة الأمريكية» Emerging Coalitioin in American Politics ثم كتابه الذى ألفه بالاشتراك مع وليم شنيدر Schneider بعنوان «أزمة الثقة: العمس والإدارة والحكومة فى عقلية الجماهير» The Confidence Gap Business, Labor and Government in the Public Mind الذى نشر عام ١٩٨٣ . وكان يدور حول تدهور الثقة لدى الجمهور الأمريكى فى كل المؤسسات الرئيسية فى الفترة من منتصف الستينيات حتى أوائل الثمانينيات وعموما فقد كان لمؤلفاته تأثير كبير فى علم الاجتماع وعلم السياسة لدرجة أن مؤلفاته ترجمت إلى ١٨ لغة من لغات العالم ومن بينها اللغة العربية.

★ ★ ★

من الرواد الذين اهتموا بالنظرية الاجتماعية وشغلتهم أنماط الفعل والتفاعل الاجتماعيين كأساس لتكوين العلاقات الاجتماعية فأكد على حقيقة أنه لكى نفهم المجتمع أو أى نسق من الأنساق الاجتماعية فلابد أن يتوجه الاهتمام إلى أنماط التفاعل المنتظمة والثابتة ولهذا تركز همه فى محاولة صياغة مجموعة من المفاهيم والتصورات المترابطة التى تمكن من دراسة الأفعال الاجتماعية الواقعية ولهذا وضع نموذجا بنائيا حدده تحديدا اجرائيا واعتقد أنه يساعد كثيرا فى فهم وتحليل الجماعات الاجتماعية وتفسير التكامل فيما بين العناصر والمكونات التى تدخل فى تكوين هذه الجماعات كشرط لازم لتحقيق ما قد تتمتع به من تماسك ووحدة.

ولكن لوميز فى مقياسه الاجرائى من الملاحظ أنه قد اعتمد كثيرا وربما بشكل طاغ على المفهومات السيكولوجية أكثر منه الاعتماد على مضامين النظريات الاجتماعية مثال ذلك مفاهيم الشعور والنفس والانجاز والسلوك المعيارى الأمر الذى يعكس اهتمامه بالنظرية النفسية وبالاتجاهات السيكولوجية خاصة وأنه كثيرًا ما يضع الاهتمام بدراسة موضوع التغير الاجتماعى فى مرتبة أو مكانة ثانوية مثله فى هذا تولكوت بارسونز. وربما يرجع كل هذا إلى فهمه الخاص لعلم الاجتماع الذى اعتبر أن موضوعه الرئيسى الذى يستأهل الاهتمام هو السلوك الاجتماعى وسلوك الفرد مع الآخرين مقتربا بذلك كثيرا من علماء مثل لندبرج Lundberg ودود Dodd وزيف Ziph. وعلى العموم فقد استخدم نموذجه القياسى فى تحليل أعمال عدد من كبار المنظرين الذين اشتمل عليهم كتابه المعنون «النظريات الاجتماعية الحديثة» Modern Social Theories (١٩٦١) من بينهم هوارد بيكر وكينجزلى دافيز وهومانز وميرتون وبارسونز وسوروكين وروبين ويليامز. وتأسيسا على هذا فقد لا يكون ثمة تحامل إذا قلنا أن هذا الكتاب لا يعتبر بمثابة نظرية اجتماعية جديدة بقدر ما هو تحليل فحسب أو نسق فكرى قد يساعد فى المقارنة وتقييم الكتابات التى يطبق عليها: وإن كانت الفائدة من هذا الكتاب من الصعب أن تكتمل دون الالتفات إلى كتابه الآخر الذى سبقه بعام تحت عنوان «الانساق الاجتماعية: مقالات فى

استـــمـــرارها وتغـــيـــرها» Social Systems: Essays in Their Persistence and Change (١٩٦٠) وهما كتابان اعتمدا على القياس السوسيومترى لتحليل مكانات الأفراد ومراكزهم الاجتماعية فى محاولة الوصول إلى معرفة ما تتمتع به الجماعة من تكامل وتماسك اجتماعيين. وربما فى هذا تكمن قيمتهما الحقيقية.

★ ★ ★

روبرت هارى لوى أنثربولوجى أمريكى من أصل نمساوى كان واحدا من جيل الكبار الذين أثروا تأثيرا كبيرا فى النظرية الأنثربولوجية بعامة والنظرية الأثنولوجية بخاصة إذ حفلت كتاباته التى قدمها على مدى نحو أربعين عاما على كثير من الرؤى والمواقف النظرية الثاقبة بالإضافة إلى نتائج دراساته وبحوثه التى أجراها على العديد من قبائل السهول الأمريكية.

ولد روبرت لوى فى عام ١٨٨٣ فى فيينا ودرس على أيدى فرانز بواس فى جامعة كولومبيا وفى جامعة نيويورك وحصل على الدكتوراه فى ١٩٠٨ ومن هذا التاريخ وحتى عام ١٩٢١ كان على صلة وثيقة بالمتحف القومى الأمريكى للتاريخ الطبيعى فى نيويورك وهى فترة زاهية فى تاريخ المتحف الذى كان كلارك ويسلر Wissler مديرًا له آنذاك. حيث قام لوى بالعديد من رحلاته الميدانية الرئيسية إلى سهول أمريكا الشمالية حيث درس قبائل الكراو Crow وبلاك فوت Blackfoot والشوشون Shoshone وكانت جميعها موضوعا لأهم دراساته النظرية والميدانية التى قدمها حتى نهاية الأربعينيات تقريبا من القرن الماضى وهى فترة ظهرت خلالها بوضوح رؤاه المساندة لنظريات الانتشار الثقافى عموما على الرغم من رفضه الصريح للمنهج الظنى التطورى القديم ومشايعته للمدرسة الأثنولوجية الأمريكية الحديثة متأثرا فى ذلك بفرانزبواس ومتخذا فى الوقت نفسه الاتجاه الذى سار فيه أمثال كروبير Croeber. كما ظهرت فى هذه الفترة أيضا اهتماماته بعلم النفس الأمر الذى انعكس بدوره فى كتاباته وبخاصة فى مؤلفه «تاريخ النظرية الأثنولوجية» The History of Ethnological Theory (١٩٣٧) الذى أخضع فيه للدراسة والتحليل كتابات عدد من أصحاب الاتجاهات التطورية القديمة منهم فوستل دوكولانج وباخوفن ومورجان وماكلينان وتايلور وكلهم من أصحاب النزعات التاريخية الاثنولوجية وإن كان يعتبرهم من أوائل الوظيفيين نظرا لدراستهم السمة الثقافية (الظاهرة) فى علاقتها وارتباطها بالسياق الكلى. علاوة على انتقاده العنيف لموقف ليفى برول من العقلية البدائية مؤكدا قدرة الإنسان البدائى على التفكير المنطقى (عكس ليفى برول) فى حدود فلسفته وموقفه من الحياة.

والواقع أنه خلال هذه الفترة التى كان فيها استاذا للأنثربولوجيا فى جامعة كاليفورنيا (١٩٢١ - ١٩٥٠) ظهرت ربما أكثر كتبه أهمية والتى مهدت الطريق أمامه لأن ينتخب رئيسا للجميعة الأمريكية للفولكلور (١٩٠٦ - ١٩١٧) ورئيسا للجمعية الأمريكية للأنثربولوجيا (١٩٣٥ - ١٩٣٦) بالإضافة إلى رئاسته تحرير مجلة الأنثربولوجيا الأمريكية فى السنوات من ١٩٢٤ إلى ١٩٣٣ . ونتيجة لجهوده فقد منحته جامعة شيكاغو الدكتوراه الفخرية (١٩٤١) عرفانا وتقديرًا لأستاذيته.

وهناك مجموعة من الأفكار الرئيسية التى ارتادها لوى وحددت مسارات فكره كما عكسته أعماله النظرية والميدانية. فقد اهتم اهتماما فائقا بالثقافة والتغايرات الثقافية لفهم المجتمع. ومع أنه قد ظهر له فى عام ١٩١٧ مؤلفه «الثقافة والأثنولوجيا» Culture and Ethnology ومؤلفه «المجتمع البدائى» Primitive Society (١٩٢٠) ثم كتابه «التنظيم الاجتماعى» Social Organization (١٩٤٨) حيث تناول فى هذه الكتب مختلف الوسائل والأساليب المستخدمة فى انتاج الطعام وكذلك أنماط الإقامة وقواعد التوريث وهو ما اعتبره مسئولا عن التغايرات فى أشكال التنظيم الاجتماعى علاوة على إلقائه الضوء على نظام طبقات العمر وبخاصة فى علاقة الرجل بالمرأة وما ارتبط بكل هذا من نظم الملكية ونظرياتها وبخاصة فى المجتمعات البدائية فقد اعتبر الكثيرون أن كتابه «المجتمع البدائى» بالذات هو الذى كان له تأثيره الزائد على الانثربولوجيا لإثارته كل المشكلات المرتبطة بالتركيب الاجتماعى ولأنه تناول بشكل واسع انساق القرابة والملكية والعدالة والحكومة وما إلى ذلك من قضايا توضح ملامح هذا المجتمع والتصورات الانثربولوجية المرتبطة به وبخاصة فكرته الأساسية القائلة بأن الدين والأساطير ترجع أصولهما إلى الأحلام التى ذهب إلى أن لها أساسها ومقوماتها البيولوجية وذلك فى الوقت الذى ذهب فيه إلى أن الاختيار الثقافى كجانب من الاختيار الطبيعى كثيرا ما يلعب دورا ويتدخل فى تحديد المزايا التى تساعد على التقدم والرقى على نحو ما ظهر فى كتابه «هل نحن متحضرون» Are We Civilized (١٩٢٩).

وعلى العموم فقد عاد لوى فى سنوات حياته الأخيرة إلى الاهتمام بالقبائل الأمريكية وإنما إلى جانب هذا اهتمامه أيضا بالثقافة الألمانية فقدم «الشعب الألمانى» The German People (١٩٥٤) و«نحو فهم ألمانيا» Toward Understanding Germany فى العام نفسه وحيث تناول فى هذا الكتاب أثر الحرب على الشخصية بينما ظهر كتابه «مختارات فى الأنثربولوجيا» فى عام ١٩٦٠ ليتوج به كتاباته وأعماله.

★ ★ ★

جيورج لوكاتش فيلسوف مجرى ماركسى وكاتب وأديب كان له أبعد الأثر فى الفكر الشيوعى الأوروبى فى النصف الأول من القرن العشرين. ولد فى بودابست فى عام ١٨٨٥ لأسرة يهودية ثرية فقد كان والده أحد رجال المال والبنوك ومع ذلك فقد أصبح يدين بالماركسية منذ وقت مبكر وانضم إلى الحزب الشيوعى المجرى فى عام ١٩١٨ . درس القانون ولكن بعد أن تأكد له ميله للعلوم الاجتماعية ذهب إلي برلين وواظب على حضور محاضرات جورج زيميل Simmel. وبعد أن حصل على الدكتوراه من جامعة بودابست (١٩٠٦) عاد مرة ثانية إلى برلين (١٩٠٩) حيث عاش فترة ذهب بعدها إلي هيدلبرج (١٩١٢ - ١٩١٥) حيث تابع دراساته الفلسفية على أيدي هنريش ريكرت Rickert وبدأ يتعرف على حلقه ستيفان جورج وعقد عدة صداقات مع بعض الماركسيين منهم إميل لاسك Lask والماركسى اليوتوبى إرنست بلوخ Bloch وتمخضت هذه الفترة عن أروع مقالاته الأدبية التى جمعت فى كتاب بعنوان «نظرية فى الرواية» The Theory of the Novel (١٩١٦) عنى فيه بمناقشة القيم الجمالية فى الأدب من خلال تصور تاريخى ساعده على بلورة رؤيته للرواية التى نظر إليها كنتاج برجوازى فى عالم لا معنى له على العكس من الملحمة القديمة. وعلى كل، فما أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها حتى عاد إلى بودابست ولكن يملؤه الألم لانتصار الرأسمالية الغربية وبسبب قيمها ومثالياتها النفعية وبعد ما أقصى النظام الشيوعى المجرى فى عام ١٩١٩ حيث كان يعمل مستشارا فنيا ترك المجر هاربا إلي فيينا حيث بقى لمدة ١٠ سنوات أشرف خلالها على تحرير مجلة العالم الشيوعى كما انضم إلى عضوية الحركة السرية المجرية.

وباعتباره أحد الماركسيين الجدد فقد أسهم إسهاما كبيرا فى صياغة نسق ماركسى لعلم الجمال يعارض التدخل السياسى فى العمل الفنى ومنحازا بذلك إلى جانب النزعة الإنسانية كما طور فى الوقت نفسه النظرية الماركسية فى الاغتراب الذى يصاحب نمو المجتمع الصناعى الحديث. وتعتبر مجموعة مقالاته التى كتبها ما بين عامى ١٩١٩ و ١٩٢٢ وجمعها تحت عنوان «التاريخ والوعى الطبقى» History and Class Consciousness (١٩٢٣) قراءة جديدة لفكر كارل ماركس حاول فيه أن يظهر

نظرية فى الوعى الطبقى كما أضاف هذا العمل دفعة جديدة لعلم اجتماع المعرفة (ترجم الكتاب إلى الانجليزية فى ١٩٧١) وإن كان قد هوجم على أى الأحوال بسبب انحرافه عن النظريات التقليدية الماركسية اللينينية مما جعله يحاول أن ينفض يديه منه بالرغم من أنه يعتبر إضافته الحقيقية للنظرية الماركسية ولكن كتاباته أصبحت بوجه عام أكثر التصاقا وتعبيرا عن وجهة النظر السوفياتية الرسمية.

كان لوكاتش فى برلين فى الفترة من ١٩٢٩ إلى ١٩٣٣ وكان بعيدا عن يد النظام النازى لفترة من الوقت مما أغراه بالانضمام إلى معهد ماركس وانجلز فى موسكو (١٩٣٠ - ١٩٣١) ولكن فى عام ١٩٣٣ غادر برلين مضطرا وعاد إلى موسكو لينضم إلى معهد الفلسفة التابع للأكاديمية السوفياتية للعلوم حيث انشغل باعادة صياغة مفهوم الواقعية النقدية وبدراسة عن هيجل وعن الرواية الأوروبية. ومع أنه تمتع بمكانة مرموقة خلال العامين ٣٥ و ١٩٣٦ فإن هذا لم يحل بينه وبين معاداته للستالينية التى زجت به فى السجن فى ١٩٤١ . ولكن فى نهاية الحرب عاد إلى بودابست وأصبح عضوا فى البرلمان وأستاذا لعلم الجمال فى جامعة بودابست حيث أكمل دراسته للتاريخ الماركسى ولم تمض سنوات حتى صار علما من أعلام الصفوة المثقفة المجرية فاختير وزيرا للثقافة أثناء الثورة.

ولقد كتب لوكاتش أكثر من ٣٠ كتابا علاوة على مئات المقالات والمحاضرات التى ألقاها ونشرها. وبالرغم من أنه قد قبض عليه أكثر من مرة واضطر إلى الرحيل إلى رومانيا لكنه انشغل بعد السماح له بالعودة ثانية إلى بودابست (١٩٥٧) ببعض أعماله الرئيسة فظهر مؤلفه الضخم عن علم الجمال The Peculiarity of Aes the tics (١٩٦٣) فى عشرة أجزاء وكتابه فى الوجود الاجتماعى The Ontology of Social Existence (١٩٧١ - ١٩٧٣) علاوة على كتاباته عن فلسفة هيجل وعن الفلسفة الوجودية واهتماماته المتشعبة بالجوانب والمشكلات النظرية والمنهجية فى علم الجمال.

★ ★ ★

لندبرج- جورج (١٨٩٥ - ١٩٦٦) LUNDBURG, George

يعتبر عالم الاجتماع الأمريكى جورج لندبرج من أبرز ممثلى الاتجاه الوضعى الحديث الذى يهدف إلى تحديد الاجراءات المنهجية فى ضوء الاتفاق والاقتناع الواضحيين على تحديد المفهومات من خلال البحث عن الدلائل التجريبية أو الاحصائية التى تمثل الظواهر الاجتماعية وتصورها فى ضوء مجموعة من الاجراءات المحددة.

بتعبير آخر يمكن القول إن عدم وجود اتفاق عام حول المفهومات العامة والأساسية فى العلم واستخدام العلماء هذه المفهومات بمعان متفاوتة وهو ما يصدق حتى بالنسبة إلى العلماء والباحثين الذين ينتمون إلى الاتجاه الواحد كان أمرا شغل تفكير لندربرج وأرقه كثيرا لأنه ينذر بالقضاء على الاتجاه العلمى ومن ثم فإن الوسيلة الوحيدة لتفادى هذه النهاية المؤسفة للعلم هى تحديد المفهومات تحديدا موضوعيا عن طريق تعريفها وتحديدها تحديدا اجرائيا. والطريقة المثلى لتحقيق هذا تتمثل فى القياس الاجتماعى (السوسيومترى) الذى توحد بالاتجاه الاجرائى إلى حد بعيد.

وقد ولد لندبرج عام ١٨٩٥ وعمل فى عدد من الجامعات الأمريكية إلى أن شغل منصب أستاذ الاجتماع فى جامعة واشنطن التى استمر فيها لسنوات طويلة. كما اختير فى عام ١٩٤٢ رئيسا للجمعية الأمريكية لعلم الاجتماع وأصبح أستاذا لعلم الاجتماع فى جامعة بتسبرج إلى أن توفى عام ١٩٦٦ وهى رحلة تطور خلالها فكره ومنهجه الذى تجسد فى دعوته إلى مناصرة الاتجاه الكمى والتحديد الاجرائى وصوغ التعميمات الكمية.

هذه الدعوة لقيت ترحيبا من الباحثين فى علم الاجتماع فأمكنهم استخدام أنواع كثيرة من المقاييس فى بحوثهم منها المقاييس الديموجرافية لقياس أشكال السلوك الاجتماعى ومقاييس الذكاء واتجاهات الأفراد وإن ظلت فى مقدمتها المقاييس السوسيومترية التى استخدمت بنجاح فى قياس العلاقات والعمليات الاجتماعية كما تظهر حتى فى الوحدات الاجتماعية الكبيرة كالجماعة المحلية والمدينة والدولة.

ومع أن البعض من العلماء قد توسعوا بشكل لافت فى تحديدهم للاتجاه الاجرائى وقالوا بوجود اتجاه اجرائى مادى يستخدم فى تحديد المفهومات المادية واتجاه اجرائى عقلى يستخدم فى تحديد المفهومات العقلية مثل مفهوم الاتصال الرياضى الذى تستخدم فى تحديده مجموعة من الاجراءات العقلية التى يتحدد بمقتضاها مدى الاتصال بين مجموعة من المقادير (بروجمان على سبيل المثال) فإن ما يبدو بوضوح هو أن لندبرج أعطى للاتجاه العقلى أهمية منهجية تفوق ما للاتجاه الآخر ومن ثم فقد انتهت كافة القواعد المنهجية لاتجاهه إلى حث الباحثين على استخدام الملاحظة الموجهة والتجارب والقياس وما تتطلبه تلك الاستخدامات من أدوات لجمع المادة والمعطيات كالاستبارات والمقاييس الثابتة الصادقة والاستبيانات المقننة مع ما يستلزمه تحليل النتائج من أساليب احصائية ورياضية فبدون جمع المادة وفق المبادئ العلمية وتصنيف هذه المادة فى أشكال السلوك وأنماطه المعينة فإن الحالات الفردية ستكون عديمة الجدوى أو النفع لأى غرض علمى. ويبدو هنا مدى اتفاقه مع ماكس فيبر فى أن العلم لا يستطيع كما لا يجب أن يشغل نفسه بصوغ الأحكام القيمية لأن ليس لها علاقة بموضوعية العلم. واتساقا مع هذا التصور فقد كان لندبرج واضحا فى عدم اعترافه بمصطلحات القيم والدوافع والمشاعر والغايات وما إلى ذلك من مفهومات رغم تأكيده المستمر على أهمية دراسة القيم التى عرفها بدورها بطريقة اجرائية وذهب إلى أنها تلك التى يسلك الأفراد على أساسها فى سلوكهم.

وهناك ثلاثة جوانب رئيسية تحدد منهجيته فى البحوث الاجتماعية والضرورات اللازمة لوضوح وتكامل اطاره التصورى. فمن ناحية أبرز لندبرج الأهمية البالغة لصياغة الفروض ذاهبا إلى أنها تعطى رؤية أو وجهة نظر محددة للبحث وتفيد فى تحديد الاتجاه الذى يتعين على الباحث السير فيه وإبراز الحقائق التى يتعين التركيز عليها أو التى يجب تجاهلها. وبمعنى آخر ذهب لندبرج إلى أن استخدام الفروض مما يلقى الضوء على كيفية جمع المادة وكيفية التحقق مما تكشف عنه أو تشير إليه.

ومن الناحية الثانية أبرز لندبرج حقيقة أن كل العلوم بما فيها العلوم الاجتماعية هى أداة أو وسيلة تكيفية وأن أبرز المفاهيم وربما أهمها مفهوم الطاقة

أو الحركة التى تتحدد المواقف الاجتماعية وأدوار الأفراد فى ضوئها ولهذا يلعب الاتصال بأشكاله المنوعة دورا حيويا فى تحديد وفهم المواقف المختلفة سواء أكانت مواقف مجمعة أو مواقف مفرقة. أما الناحية الثالثة فتتمثل فى ميله إلى تبنى نماذج فى العلوم الطبيعية.

فى كتابه المشهور «أسس علم الاجتماع» Foundations of Sociology الذى يعتبر عمله الرئيسى وأفضل كتبه عبارة لها دلالتها ومغزاها تقول (إن مصطلح القانون العلمى يمكن أو يجب أن يعنى فى العلوم الاجتماعية نفس ما يعنيه «بالضبط» فى أى من العلوم الأخرى).

ولاشك أن العبارة تعكس نوعا من المبالغة بقدر ما تعنيه كلمة (بالضبط) وإن كان من المهم القول مع ذلك أنها عبارة صحيحة وصادقة بوجه عام. صحيح أن هناك اختلافات بين الحتميات الفيزيقية والحتميات الاجتماعية ولكن الصحيح أيضا أنها - كما يذهب لندبرج - اختلافات فى الدرجة أكثر منها فى النوع. بل وأكثر من هذا أن الحتيمة فى العلوم الطبيعية قد تغيرت إلى حد أنها أصحبت أقرب إلى المفهوم فى العلوم الاجتماعية. ولهذا فهو ينتهى إلى نتيجة أساسية تتعلق بدور القياس فى نشأة القانون العلمى حيث يقرر أن القانون العلمى يندر اكتشافه بالقياس الأمر الذى يتوجب معه وجود النظرية الكيفية التى تحدد للباحث موضع المشاهدة وهذه الناحية أكدها في مؤلفه الذى أصدره بعنوان «البحث الاجتماعى» Social Research (١٩٤٢) حيث ذهب إلى أن المقياس الكمى ضرورة لا تقل عنها ضرورة وجود النظرية إذا أراد العلم تقديم وصف وتحليل أكثر دقة للظواهر التى يدرسها الباحثون.

لقد كان لندبرج يكن تقديرا كبيرا لعلم الاجتماع والمشتغلين به خاصة والعلوم الاجتماعية بصفة عامة. وبالرغم من وضوح هذه الوضعية فى كل كتاباته وهو ما يظهر بشكل جلى فى كتابه «علم الاجتماع» Sociology (١٩٥٤) فقد عاد فى أواخر حياته يتحدث عن الموضوع نفسه عندما مضى يتساءل فى كتابه «هل بمقدور العلم انقاذنا Can Science Save Us (١٩٦١) وإذا كان يقصد بالعلم علم الاجتماع

بالذات فقد جاءت اجابته عن التساؤل شاملة وحاسمة فى آن واحد عندما اعتبر العلم والمشتغلين به ضرورة من ضرورات المجتمعات الصناعية المتقدمة فى بلدان العالمين الأول والثانى الأمر الذى لا يختلف عليه اثنان.

★ ★ ★

اشتهرا بهذا الارتباط فى اسميهما فهما الزوجان روبرت ستون ليند وزوجته هيلين ليند أو ميريل Merrell كما كان اسمهما قبل الزواج. والاثنان معا من أبرز علماء الاجتماع الذين عملوا معا كفريق عمل متناغم فقدما الدراسة الشهيرة باسم «ميدلتاون» Middletown (١٩٢٩ و ١٩٣٧) التى أصبحت من عيون التراث الاجتماعى الكلاسيكى باعتبارها أول دراسة منظمة لفهم مجتمع أمريكى محلى فى ضوء استخدام مناهج الأنثربولوجيا الثقافية والملاحظة الميدانية لمظاهر التدرج الاجتماعى حيث قسما المجتمع إلى طبقتين لكل منهما وظائفه الأساسية وهى طبقة رجال الأعمال وطبقة العمال الأمر الذى يكشف عن وجود ما اعتبراه قدرا قليلا من التكامل فى المجتمع.

ولقد ولد روبرت ليند فى ولاية إنديانا عام ١٨٩٢ ونال تعليمه فى جامعتي برينستون وكولومبيا بينما زوجته هيلين كانت تصغره بعامين (١٨٩٤) وولدت فى «لاجرانج La Grange فى ألينوى Illinois وتوفيت بعد وفاة زوجها باثنى عشر عاما (١٩٨٢).

وخلال هذه الرحلة اضطلع روبت ليند فى أثناء الحرب العالمية الأولى بتحرير Publisher Weely (١٩١٤ - ١٩١٨) وبعد ذلك عمل فى بعض المؤسسات ودور النشر فى مدينة نيويورك. وفى الفترة من ١٩٢٣ - ١٩٢٦ أشرف على إحدى الدراسات الاجتماعية لمعهد البحوث الاجتماعية والدينية وقام بعد ذلك بتدريس علم الاجتماع فى جامعة كولومبيا (١٩٣٦) كما نشر مؤلفه «لماذا المعرفة» Knowledge for what? (١٩٣٩) وهو كتاب إبرز فيه طبيعة التناقضات التى يعشها المجتمع الأمريكى والصراعات التى تأخذ بفكر وكيان الأفراد وهم مشدودون إلى التطلعات التى تغرسها فى نفوسهم وعقولهم الدعاية والإعلان فبقوا يتأرجحون بين لهف طموحاتهم ووطأة تطلعاتهم وبين قدراتهم المحدودة وإمكاناتهم الضئيلة. ويخلص إلى أن الثقافة الأمريكية مما يعبتر مصدرا لكثير من المشكلات التى تتطلب عملية مواجهتها تضافر الذكاء والجهود العلمية وهو ما يتعثر العلماء والباحثون فى الوفاء

به وهى نتيجة لا تختلف كثيرا عما انتهى إليه الجزء الأول من دراسته «ميدلتاون» السابق الإشارة إليها فى محاولته لفهم المجتمع الأمريكى ومحاولته التعرف على قدرة النظام الاجتماعى على مواجهة احتياجات الأفراد.

ولقد تزوج روبرت ليند من ميريل فى الثالث من سبتمبر عام ١٩٢١ ونجحت فى التوفيق بين حياتها كزوجة وبين عملها فى سارة لورانس كولبيج Sarah Lawrence فى برونكسفيل Bronxville فى نيويورك (٢٩ - ٦٤). أما فيما يتعلق بكتاباتها التى تفردت هى بانجازها فهناك «عن الحياء والبحث عن الهوية» On Shame and the Search for Identity (١٩٥٨) و «نحـــو الكشف» Toward Discovery (١٩٦٥). وبالرغم من أن هذه الكتابات جميعها سواء تلك التى قدماها مشتركين أو كل على حدة قد لقيت فى حينها تقديرًا فائقا من الباحثين والقراء فإن دراستهما «ميدلتاون» هى التى مازالت إلى اليوم تشير إلى صاحبيها كدليل ناطق على تمكنهما وتفوقهما.

وكنت قد أشرت من قبل ربما بطريقة عابرة إلى أن ميدلتاون قد نشرت فى جزءين (كتابين) منفصلين ومنذ البداية حدد المؤلفان الغرض منها وهو على حد تعبيرهما دراسة الحياة الاجتماعية فى إحدى المدن الأمريكية التى يمكن أن تعتبر ممثلة لكل المدن الأمريكية الأخرى حيث تم تسجيل الظواهر الاجتماعية التى تناولتها الدراسة الحقلية (١٩٢٤ - ١٩٢٥) التى تم نشر نتائجها فى الكتاب الأول بعنوان «ميدلتاون: دراسة فى الثقافة الأمريكية المعاصرة Middletown AStudy in Contemporary American Culture (١٩٢٩). أما الكتاب الثانى فهو بمثابة دراسة تتبعية تمت على المجتمع نفسه بعد سنوات حيث أجريت الدراسة الحقلية عام ١٩٣٥ لدراسة المجتمع (ميدلتاون كاسم مستعار يشير الى المدينة الحقيقية) «مونشيو Muncio» لملاحظة آثار الكساد الاقتصادى (فى الثلاثينيات) على المدينة حيث تركز الاهتمام بصفة خاصة على البناء الطبقى وعلاقات القوى السياسية والاقتصادية. وفى ضوء هذا جاء نشر هذا الكتاب الثانى بعنوان «ميدلتاون فى التجول: دراسة فى الصراعات الثقافية» Middletown in Transition: A Study in Cultural Conflicts (١٩٣٧).

إن ما لاشك فيه هو أن روبرت ليند وزوجته هيلين ليند من أبرز العلماء الذين اهتموا بقضية التدرج الاجتماعى ومن بين العلماء الذين يتمتعون بالنظرة النقدية الفاحصة فى ضوء الوعى التام بكل مظاهر عدم المساواة الاجتماعية وعدم عدالة توزيع القوة والثروة بين الطبقات والجماعات الاجتماعية فى المجتمع الأمريكى ونجح بذلك فى اعطاء صورة صادقة للمجتمع موضوع دراسته معتمدا على منهجية وتصور واضحين حاول فيما الجمع بين التحليل الماركسى والفيبرى لتحليل البناء الطبقى للمجتمع بكل مكوناته وعناصره. ومع أن كل هذا مما يعبتر بحق اضافة لتراث علم الاجتماع السياسى فربما كان الجديد الذى ينبغى أن تتذكره دائما الأجيال الأصغر من الباحثين هو معالجتهما ونظرتهما للطبقة الوسطى التى نظرا إليها على اعتبار أنها قبيلة بالمعنى الأنثربولوجى. وهذه ناحية تكشف بلاشك عن مدى إهمال الباحثين لدراسة طبيعة الانقسامات والتقلبات الاجتماعية من ناحية وإهمالهم أيضا لظاهرة الوعى الطبقى وعدم نضوجه لدى الطبقة الوسطى على وجه الخصوص.

★ ★ ★

- M -

ماكيفر روبرت هاريسون (١٨٨٢ - ١٩٧٠) MACIVER, ROBERT MORRISON

عالم الاجتماع الأمريكى الاسكتلندى الأصل روبرت هاريسون ماكيفر يعتبر واحدا من كبار العلماء الذين قدموا اسهاما كبيرا فى مجال النظرية فى علم الاجتماع النظرى من خلال كتاباته المتشعبة التى غطت معظم مناحى ومجالات الدراسة السوسيولوجية فقد كتب فى النظرية الاجتماعية مثلما كتب فى المناهج والبناء الاجتماعى والتنظيم المعيارى وفى الجماعات الاجتماعية وفى المجتمع وفى التغير الاجتماعى علاوة على كتاباته المنوعة فى السياسة التى تناول فيها النظرية السياسية والحركات الاجتماعية والضبط الاجتماعى والحرية والثورات إضافة إلى كتاباته المنوعة فى الاقتصاد والفلسفة والعلوم الاجتماعية التطبيقية وكلها كتب يغلب عليها الطابع النظرى الذى لم يفارقه أبدا.

ولد ماكيفر فى ستورنوى Stornoway باسكتلندا فى شهر إبريل عام ١٨٨٢ ونال درجة الماجستير من جامعة أدنبرة (١٩٠٣) ثم درجة الدكتوراه (١٩١٥) بالاضافة إلى عدة درجات علمية أخرى نالها من جامعات كولومبيا وهارفارد وبرينستون وييل وكانت جامعة كولومبيا هى الجامعة الرئيسة التى ارتبط بها منذ أن تقاعد فى عام ١٩٢٧ . واختير رئيسا للجمعية الأمريكية لعلم الاجتماع كما نال عدة درجات شرفية من هارفادر (١٩٣٦) إلى جانب ما حصل عليه من جوائز نالها عن بعض كتاباته ومؤلفاته من بينها جائزة وودرو ويلسون التى نالها فى الأربعينيات من القرن الماضى.

وماكيفر باعتباره أحد كبار المفكرين الذى اسهموا فى تشييد علم الاجتماع النظرى وتطويره (من بينهم زنانيكى وسوروكين وبارسونز وميلز وغيرهم على سبيل المثال) تميز تفكيره ببعض المنطلقات الأساسية التى يمكن اعتبارها مفاتيح رئيسية لفهمه وفهم مواقفه الفكرية. فهو من بين العلماء القلائل الذين تميزوا بإحساسهم الفائق بتعقد الحياة الاجتماعية وتشابكها وإن كان أسلوبه الأدبى مكنه من التغلب على هذه الناحية بما أقامه من جسور بينه وبين قرائه. ومنذ البداية ارتبط ماكيفر

بمسلمة أساسية قوامها إن الإنسان كائن مبدع ولكنه فى الوقت نفسه من صنع المجتمع وصنع الثقافة واعتبر هذا بمثابة محدد رئيسى لفهم السلوك البشرى بمجالاته المختلفة فهناك المجال المادى ومجال الكائن العضوى ومجال الكائن المدرك أو الواعى ولكل منها خصائصه وديناميياته وإن كانت مترابطة ومتداخلة فى النهاية. وبالرغم من اهتمامه بالمجالات الثلاثة إلا أن معظم اهتمامه كان موجها إلى مجال الكائن الواعى بالذات الذى تبرز فيه مستويات ثقافية وتكنولوجية واجتماعية مما يجعل المجال بمثابة المخزن الثقافى للإنسان. ولما كانت نظرته للمجتمع تتمثل فى أنه شبكة من العلاقات الاجتماعية (وهو هنا لا يختلف عن نظرة علماء الاجتماع الأوائل) فقد تأدى به هذا الفهم إلى أمرين أساسين هما أولا أنه لكى تكون هناك نظرية كاملة فى السلوك البشرى فلابد أن تشتمل بالضرورة على علم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعى وثانيا أن هذه الغاية تتطلب فهما دقيقا للمفاهيم التى ينطوى عليها كل من هذين العلمين مثل مفهوم المجتمع والمجتمع المحلى والرابطة والسنن الاجتماعية والطبقة والنظام والاتجاهات والمصالح وما إلى ذلك من المفهومات التى يتردد استخدامها. وحيث ظهرت كثير من المشابهات بين ما أوضحه من مفهومات وبين ما ذهب إليه البعض فيما يتعلق بالمفهومات نفسها فثمة انعكاسات لأفكار تشارلس كولى Cooley مثلا ليس فحسب من حيث التشابه المنهجى ولكن أيضا من حيث محاولة ماكيفر تطوير فكرة كولى عن (الآخر) وعن (صورة الذات) وعن الاعتماد المتبادل بين الفرد والمجتمع علاوة على التشابه بينه وبين تونيز وتمييزه بين المجتمع والمجتمع المحلى وهو نفس الأساس الذى استخدمه ماكيفر فى التمييز بين المجتمع المحلى والرابطة حيث ذهب إلى أن المجتمع المحلى هو جماعة اجتماعية محددة مرتبطة بمكان معين على حين الرابطة منظمة غايتها خدمة عدد معين من المصالح وبدهى أن المفهوم الأول يستغرق بالضرورة المفهوم الثانى علاوة على كل صور التنظيم الاجتماعى على تعددها وتغايرها. مما يتحتم معه ضرورة التركيز على دور مختلف الأحاسيس والمصالح والاتجاهات الذاتية فى الحياة الاجتماعية.

وقد يكون من الصعب الإحاطة بكل مؤلفات ماكيفر بسبب تشعب الميادين التى كتب فيها على ما أسلفنا الإشارة ولهذا سنكتفى بذكر بعض منها فى مقدمتها كتابه

«المجتمع المحلى» Community (١٩١٧) الذى تميز بطابعه النظرى وإن كان كتابه الذى ألفه بالاشتراك مع تشارلز بيج Page تحت عنوان «المجتمع: بناؤه وتغيراته» Society: Its Structure and Changes (١٩٣١) هو ما تضمن نظريته السوسيولوجية فى أكمل صورها. ثم تتابعت بعد ذلك مؤلفاته ومن أهمها The Web of Government (١٩٤٧) وكتابه «الأمة والأمم المتحدة» The Nation and the United Nations (١٩٥٩) و«تحول القوى» Power Transformed (١٩٦٤) و«الوقاية من الجناح والتحكم فيه» The Prevention and Control of Delinquency (١٩٦٦) و«السياسة والمجتمع» Politics and Society (١٩٦٩) وقد نشر هذا الكتاب قبل وفاته بحوالى عام إذ مات ماكيفر فى نيويورك فى الخامس عشر من شهر يونيو عام ١٩٧٠ .

★ ★ ★

مالينوفسكى، برونيسلاو (١٨٨٤ - ١٩٤٢) MALINOWSKI, Bronislow

انثربولوجى بريطانى من أصل بولندى يعتبر من أشهر وأهم العلماء فى القرن العشرين وينظر إليه بعامة على أنه مؤسس الأنثربولوجيا الاجتماعية بسبب دراساته الحقلية التى أجراها على شعوب المحيط الباسيفيكى (الهادى). بل إنه يمكن القول أيضا إن الدعائم المتينة للاتجاه الوظيفى لم تتأكد إلا على يديه وفى ضوء دراساته وهو ما أبرزه فى كتابه «النظرية العلمية للثقافة» A Scientific Theory of Culture (١٩٤٠) الذى أرسى فيه قواعد المنهج من ناحية والمفهومات الرئيسية من ناحية ثانية وفى مقدمتها مفهوم الوظيفة والحاجات الاجتماعية والنفسية التى اعتبر أن مهمة أو وظيفة النسق الاجتماعى والنظام الاجتماعى العمل على اشباعها وخاصة الحاجات البيولوجية والحاجات الثقافية.

ولقد ولد برونيسلاو كاسبر مالينوفسكى لأب كان استاذا جامعيا فى عام ١٨٨٤ بمدينة كاراكاو Kraków، فى بولنده وحصل على درجة الدكتوراه فى الطبيعة والرياضيات عام ١٩٠٨ ولكنه تحول إلى الأنثربولوجيا بتأثير قراءته لكتابات السيرجيمس فريزر (Frazer) وخاصة كتابه الغصن الذهبى The Golden Bough وهكذا سافر إلى انجلترا فى عام ١٩١٠ ودرس فى مدرسة لندن للعلوم الاقتصادية وقضى أربع سنوات حيث تلقى فى جامعة لندن تدريبه فى الأنثربولوجيا على يد الأستاذ سليجمان Seligman كما تتلمذ أيضا فى لندن على يد وستر مارك Wester marck وريفرز Rivers وهوبهاوس Hobhouse ثم سافر فى ١٩١٤ إلى استراليا التى لم يستطع مغادرتها بسبب الحرب العالمية الأولى والقبض عليه باعتباره بولندى الجنسية فمكث ٦ سنوات (١٩١٤ - ١٩٢٠) قام خلالها بدراسته الشهيرة عن جزر التروبرياند Trobriand Islands التى تقع شرق غينيا الجديدة كما تزوج فى ١٩١٩ من ابنة استاذ بالجامعة وبعد عودته إلى انجلترا عين فى ١٩٢٤ فى جامعة لندن وقام بتدريس الأنثربولوجيا ثم شغل أول كرسى ينشأ للانثربولوجيا فى هذه الجامعة عام ١٩٢٧ وكان م بين تلاميذه رايموند فيرث وبريستيانى وإيفانز بريتشارد وبعد ذلك قام بعدة زيارات للولايات المتحدة حيث درس فى عدد من جامعاتها ولما داهمته الحرب العالمية الثانية قرر البقاء فى الولايات المتحدة للتدريس

فى جامعة ييل Yale وقام خلال العامين ١٩٤٠ و ١٩٤١ بدراسته الحقلية عند الزابوتيك Zapotec فى المكسيك.

وهناك بديهيتان رئيسيتان ينطلق منهما تفكير مالينوفسكى الذى يرى الكثرون أنه قد تمت على يديه ملامح الاتجاه الوظيفى البنائى. البديهية الأولى أن كل ثقافة – بصرف النظر عن مدى تقدمها أو تخلفها – يجب أن تشبع الرغبات والحاجات البيولوجية للإنسان وبذلك توجد فرصة حقيقية للاستقرار ولتقدم المجتمع . أما البديهية الثانية فهى أن الاتجاه الثقافى ما هو إلا تدعيم آلى وتلقائى للفسيولوجيا البشرية وكان لهاتين البديهيتين أثرهما الكبير فى دفع الدراسات الأنثربولوجية وإن كان البعض يعتبر أن رادكيف براون بالذات هو صاحب أكبر تأثير في النظرية الوظيفية البنائية. أما الثقافة فقد ذهب مالينوفسكى إلى أنها تؤلف وحدة عضوية حيث تعتبر العادات والمعتقدات الاجتماعية صورا ومظاهر جزئية صدرت عن وحدة النسق الكلى للبناء الثقافى المتكامل نظما ووظائف.

والواقع أنه ارتكازا على هذا الفهم تأكدت لدى مالينوفسكى العلاقة بين فكرة الوظيفية وفكرة العلية (السببية) وذلك على اعتبار أن وظيفة النظام فى النسق الاجتماعى هى دوره وعلته التى تفسر سائر الوظائف فى الانساق الاجتماعية الأخرى والتى يصل الانثربولوجى إليها عن طريق تحليله الوظيفى لسائر انساق البناء الاجتماعى بمعنى أن صورة النظام هى وظيفته لأن هناك ارتباطات سببية وعلاقات تربط النظم الاجتماعية بعضها ببعض فعندما نتكلم عن وظيفة النظام فإنما نؤكد دوره فى البناء الثقافى والاجتماعى.

وليس من شك فى أن هذا المضمون الاجتماعى لفكرة العلية ونجاح مالينوفسكى فى استخدام فكرة العلية استخداما اجتماعيا يربطها بفكرة الدور الوظيفى للنظام وللنسق الاجتماعى متأثرة بدرجة أو بأخرى بفكر دور كايم وهو يسعى إلى نظرية متكاملة لتفسير الظواهر. ومع أن مالينوفسكى نفسه يعترف بتقديره العميق لدور كايم وسائر أعضاء المدرسة الفرنسية فى علم الاجتماع وفى مقدمتهم مارسيل موس Mauss إلا أن هذا التقدير لم يمنعه من أن ينتقد بل ويرفض تماما تصوراتهم المجردة عن المجتمع ويركز بدلا من ذلك على الفرد. وهذه ناحية اعتبرها مدخلا أكثر واقعية بالرغم من أن نظريته الوظيفية تصر على المبدأ

الأساسى الذى يذهب إلى أنه فى كل نمط من أنماط الحضارة نجد أن كل عادة وكل شيء مادى أو فكرة أو معتقد يعمل على كفاية وظيفة حيوية معينة ومن ثم فلن يتسنى فهم أى ثقافة إلا عن طريق فهم هذه الوظائف والكيفية التى تعمل وتترابط بها.

بهذه الحاسة التى تفوق بكثير ما نجده عند غيره من العلماء (من بينهم دوركايم نفسه) مضى مالينوفسكى يتحدث عما يتعين على المجتمع الإنسانى أن يكون عليه على الرغم من أن المجتمع عنده كان فى الأغلب المجتمع البدائى الذى جرت فيه أبحاثه ودراساته. وإذا كانت العادة قد جرت على تصنيفه كواحد من رواد بل عمالقة الوظيفيين وهذا صحيح إلى أبعد الحدود فإن الصحيح أيضا أنه وظيفى من نوع مغاير أو بالأصح من نمط يختلف تماما عما نلتقى به لدى دور كايم مثلا أو حتى رادكليف براون. فعلى حين سعى هؤلاء إلى تفسير النظم وشرح وظيفتها وعملها بتبيان اسهامها فى الحفاظ على حياة المجتمعات وبقائها فقد سعى مالينوفسكى إلى ذلك بتوضيح الكيفية التى تقابل بها احتياجات الإنسان وهذه التفرقة هى مناط الاختلاف بين ما يطلق عليه الوظيفة المكانية أو المجتمعية Societal Functionalism وبين الوظيفية النفسية والأخيرة هى التى قدر لها أن تصبح وجها حقيقيا لامعا لعلم النفس السلوكى.

وبقدر ما يغرى هذا بالحديث عن كل أعمال مالينوفسكى تفصيلا فإن هناك ما يحول بالفعل دون تحقيقه أولا لكثرتها وتعددها وثانيا لأن البعض من هذه الأعمال قد نشر بعد وفاته (١٩٤٢) بسنوات ويصعب الاطمئنان إلى سلامة ترجمتها عن البولندية. وعلى أى الأحوال فربما كان فى الإحاطة بأهم أعماله التى أجراها عن جزر التروبرياند ما قد يعطى فكرة واضحة عن تفكيره بجوانبه المتشعبة خاصة وأنه لم يقدم نتائج دراسته عن هذه الجزر فى كتاب واحد كما يفعل البعض وإنما قدمها فى عدة كتب عالج فى كل كتاب منها موضوعا رئيسيا فى ضوء علاقاته بطابع الحياة وأسلوبها ونمطها ككل.

الكتاب الأول عن سكان جزر التروبرياند هو Argonauts of Western Pacific نشره فى عام ١٩٢٢ وهو دراسة للنشاط الاقتصادى بين سكان ميلانيزيا الأصليين ويعطى صورة للأشكال الاقتصادية والتجارية بين القبائل حيث يظهر مبدأ التكامل بين النظم المختلفة من خلال حديثه عن ملامح التنظيم الاجتماعى

والظواهر والملامح الثقافية كالسحر والدين والأساطير وارتباطها جميعا بهذه النظم الاقتصادية التى يبرز فيها نظام الكولا Kula كنوع من تبادل السلع والمنتجات وهى دراسة استفاد فيها كثيرا من دراسة مارسيل موس عن الهدية.

الكتاب الثانى بعنوان «الحياة الجنسية عند المتوحشين فى ميلانيزيا الجديدة» The Sexual Life of Savages in New-Western Melanesia (١٩٢٩) ويدور حول العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة علاوة على عادات الأهالى ومعتقداتهم المرتبطة بالزواج والطلاق والأحلام والحب والأساطير والعلاقة بين عالم الأرواح وانجاب الأطفال وما إلى ذلك. وإن كان قد سبق هذا الكتاب نشر كتاب آخر بعنوان «الجريمة والعرف فى المجتمع المتوحش» Crime and Custom in Savage Society (١٩٢٦) وهو عبارة عن دراسة ممتعة للقانون البدائى وللجريمة والعقاب فى ذلك المجتمع. وكذلك نشر فى العام نفسه كتابا بعنوان «الأسطورة فى علم النفس البدائى» Myth in Primitive Psychology (١٩٢٦) ثم فى العام الذى يليه (١٩٢٧) كتابا وثيق الصلة تحت عنوان The Father in Primitive Psychology . ثم فى أواخر حياته نشر كتابين أولهما أكمل به سلسلة كتبه عن التروبرياند تحت عنوان Coral Gardens and Their Magic (١٩٣٥) ثم The Foundation of Faith and Morals (١٩٣٦). وإن كان قد نشر له بعد وفاته واحد من أهم كتبه بعنوان «السحر والعلم والدين ومقالات أخرى» Magic, Science and Religion and Other Esseys (١٩٤٨).

★ ★ ★

يعتبر كارل مانهايم من وجهة نظر الكثيرين الممثل الحقيقى لعلم الاجتماع الألمانى المعاصر فهو أحد الكبار المؤسسين (الحقيقة ومعه ماكس شيلر Scheler أيضا) لنظرية المعرفة ونظرا لمساهماته المتعددة فى علم الاجتماع بعامة ومعالجته قضية موضوعية المعرفة بخاصة بالنظر إلى العوامل والشروط الاجتماعية وما لها من أثر فى نشأة المعارف واكتسابها وانتشارها ومؤكدا بذلك على سوسيولوجية المعرفة وذلك عندما أعبتر أن المهمة الرئيسية لعلم اجتماع المعرفة إنما تتمثل فى دراسة العلاقة التى تربط المعرفة بالشروط الاجتماعية وكذلك تحليل صلة الفكر بالوجود الاجتماعى والمواقف التاريخية مما يعنى أن ثمة ارتباطا وائتلافا بين الفكر والوجود الاجتماعى يعكس الكثير من الارتباطات المتشعبة التى تربط المعرفة بالثقافة والتاريخ.

ولقد ولد مانهايم فى بودابست (١٨٩٣) التى كانت مركزا من مراكز الانتشار الثقافى للفكر الألمانى وعاش فى فترة عصيبة مشحونة بجو الأزمات والصراعات السياسية أثناء الحرب العالمية الأولى التى مثلت فترة من أحرج فترات التاريخ الأوربى التى كان لها أعمق الأثر فى تشكيل فكره وأيضا فى صياغة الموضوعات الأساسية ليس فى علم اجتماع المعرفة فحسب ولكن فى كل ضروب المعرفة وبخاصة بعد أن ترسخت فى عقله ووجدانه كافة الأزمات التى عكست أسوأ مظاهر التحلل الاجتماعى ولكن صاحبتها فى الوقت نفسه درجة عالية من الإدراك والنقد والوعى بالذات.

إزاء هذا الواقع المليئ بالتناقض كان من الطبيعى أن يتولد لديه الإحساس بالحاجة إلى قيم جديدة وثقافة جديدة وفكر جديد وكان طبيعيا أيضا أن يتأثر بمختلف التيارات والفلسفات التى كانت تصطرع وقتذاك على الساحة لتضيف إلى تكوينه العقلى والنفسى ما جعله أقدر على البحث عن ذاته وعلى اكتشاف طريقه. فقد تعلم فى جامعات بودابست وبرلين وباريس وفرايبورج كما تعرض لكثير من التأثيرات التى انطبعت بصماتها فى تفكيره وفى مقدمتها تأثير الماركسية ذاتها

وتأثير جورج لوكاتش Lukacs وبيلازيلاى Béla Zalay وكذلك تأثير جورج زيميل Simmel وبصفة خاصة تأثير ادموند هوسرل Husserl وهنريش ريكرت Rickert وماكس فيبر Weber وماكس شيلر وديلتى Dilthey وبفعل هذه المؤثرات فقد مارست النزعة التاريخية الألمانية والماركسية والفينومينولوجية بالإضافة إلى البراجماتية الانجلوساكسونية تأثيرا متزايدا ظهر بأشكال متعددة فى أعماله.

هناك قول مشهور قيل فى وصف كارل مانهايم مؤداه أن تاريخ حياته كله يعكس هجرة فيزيقية وعقلية دائمة. وللحق فإنه قول ليس فيه الكثير من التجاوز فقد تبوأ عدة مناصب أكاديمية فى هيدلبرج وفرانكفورت ومدرسة لندن للعلوم الاقتصادية وفى جامعة لندن كذلك . فإذا ما تم استعراض شريط حياته الحافل أمكن التمييز فيه بين ثلاث مراحل أساسية أولاها ما يعرف بالمرحلة المجرية التى استمرت إلى عام ١٩٢٠ والمرحلة الثانية هى المرحلة الألمانية واستغرقت فترة قصيرة نسبيا من ١٩٢٠ إلى ١٩٣٣ ثم المرحلة الثالثة التى يطلق عليها المرحلة البريطانية من ١٩٣٣ إلى ١٩٤٧ عام وفاته. وغنى عن القول أن كل مرحلة من هذه المراحل كانت لها اهتماماتها وخصائصها التى انعكست فى كتاباته.

المرحلة الأولى (المجرية) كانت ذات طابع أدبى وفلسفى إلى حد بعيد وقد ظهرت له خلالها مقالة بعنوان «الروح والثقافة» Soul and Culture (١٩١٨) اتضح فيها مدى تأثره بأفكار جورج زيميل الفلسفية وتعتبر بوجه عام خطوة أولى فى محاولته تجاوز النظرة الألمانية المثالية فى التاريخ والمجتمع. كما ظهرت له أيضا فى هذه المرحلة بعض الكتابات التى نشرت فيما بعد ومنها «الحرية والقوة والتخطيط الديمقراطى» Freedom, Power and Democratic Planning.

ولكن الرحلة الثانية شهدت تحولا ملحوظا من الفلسفة إلى علم الاجتماع والشغل بالبحث عن الأصول الاجتماعية الممكنة للثقافة والمعرفة فتناولت كتاباته قضايا التحليل البنائى للمعرفة والنزعة التاريخية ومختلف التفاسير الاجتماعية والأيديولوجية للظاهرة الثقافية كما تناولت أيضا العديد من مشاكل التنافس والصراع الثقافى علاوة على مؤلفه الهام بعنوان «الأيديولوجيا واليوتوبيا» Ideology and Utopia (١٩٢٩) وغيره من الكتابات التى كانت بمثابة تمهيد أو مدخل للفهم والتحليل الاجتماعيين لبناء المعرفة وهى القضية الأساسية التى شغلته وشكلت

عصب عطائه العلمى خاصة وأنه حاول فى «الأيديولوجيا واليوتوبيا» توضيح كيف أن كل البناءات العقلية باستثناء المعرفة الخاصة بالعلوم الطبيعية غير مترابطة فى السياق ولذا فهى تختلف فى خلفياتها التاريخية والاجتماعية. ومن هنا كان تمييزه بين نوعين أو تصورين للأيديولوجيا الأول هو المفهوم أو التصور النوعى حيث نجد أن جماع البناء العقلى أو الذهنى لموضوع ما لم يتحدد بعد بشكل واضح بوضعيته التاريخية والاجتماعية على حين أن التصور الثانى هو الشامل أو الكلى وفيه يرتبط الموضوع بأكمله بالموقف التاريخى والاجتماعى أو يكون مستمدا منه على أقل تقدير. وخلص من كل هذا إلى أن علم اجتماع المعرفة إنما يعبر إذن عن الأيديولوجية الكلية ومعبرا على وجه الخصوص بالكيفية التى تقدم بها الأشياء ذاتها ونفسها للموضوع وفقا للاختلافات فى وضعياتها الاجتماعية.

أما المرحلة الثالثة من حياته فقد تلونت بشكل واضح بالتيارات والمواقف البراجماتية والعملية حيث ظهر له كتابان على الأقل حول التحليل الواعى لبناء المجتمع الحديث باعتباره بؤرة اهتمام علم الاجتماع التطبيقى على وجه الخصوص وقد صدر أول هذه الكتب تحت عنوان Man and Society in an Age of Reconstruction (١٩٣٥) والثانى بعنوان Diagnosis of Our Time (١٩٤٣) بالإضافة إلى العديد من المؤلفات التى نشرت بعد وفاته وبعدها تمت ترجمتها إلى الانجليزية.

★ ★ ★

هربرت ماركوزة فيلسوف ألمانى نظر إليه الكثيرون على أنه ممثل الأيديولوجيا الألمانية والمنظر الأول لجيل الثائرين. ولد فى برلين عام ١٨٩٨ لأسرة يهودية غنية ونال تعليمه فى جامعات برلين وفرايبورج Fraiberg حيث تأثر فى مرحلة تكوينه الأولى بفكر هيجل الذى امتزج فى الوقت نفسه بفكر كارل ماركس.

فى عام ١٩٣٤ بعد تأسيس الحزب الاشتراكى الوطنى هاجر من ألمانيا إلى الولايات المتحدة الأمريكية التى منحته الجنسية الأمريكية فأصبح مواطنا أمريكيا فى عام ١٩٤٠ . وفى هذه الأثناء التقى لأول مرة بماكس هوركيمر Horkeimer وأدورنو Adorno والتحق معهما بمعهد فرانكفورت للبحث الاجتماعى الذى أعادوا تأسيسه فى كاليفورنيا. ثم بعد ذلك التحق بهارفارد وبرانديز وكولومبيا ولكن سرعان ما انقلبوا عليه بحجة إفساد عقول الشباب تماما كما فعلت أثينا مع سقراط Socrate من قبل.

وقد تساعد النظرة الفاحصة لما يعتبر أهم أعماله على فهم تفكيره كواحد من أعلام النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت. كتابه الأول كان بعنوان «العقل والثورة» Reason and Revolution (١٩٤١) كان انعكاسا فى الواقع لتأثره بفكر وفلسفة هيجل والكتاب نفسه يحمل عنوانا فرعيا يشى بذلك وهذا العنوان الفرعى هو «هيجيل ونشأة النظرية الاجتماعية» Hegel and the Rise of Social Theory ولذا كان على درجة عالية من التجريد وهو يناقش بعض المقولات الهامة والأساسية عند هيجيل وفى مقدمتها مقولة التناقض الذى اعتبره هيجل دليلا على حركة الفكر وقدرته الابداعية مما يعنى تأكيده الدائم على (الوجود) دون أن يحمل معنى العدم على ما يظهر فى حركة الجدل الهيجلى الذى ينشغل بوجود ميتافيزيقى بحت (أو تجريد خالص) على العكس من الجدلية المادية. ومنه مقولة الحرية ومقولة الضرورة ومقولة الصراع ومقولة الحقيقة ذاتها وفى جوهرها مقولة «العقل» الذى مجده هيجل على حين أكد كارل ماركس مقولة «الثورة» الأمر الذى أكد عليه ماركوزة بدوره.

فى كـتـابه الثـانى المعنون «الأيروس والحـضـارة» Eros and Civilization (١٩٥٥) تناول الكثير من المفهومات التى أثارها فرويد ومن بعده كتاب «الماركسية السوفياتية» Soviet Marxism (١٩٥٨) ثم بعد ذلك كتابه الهام الرابع بعنوان «الإنسان الوحادى البعد» One-Dimensional Man (١٩٦٤) الذى انتهى فيه إلى تقرير أن المجتمع الحديث المعروف بالنزعة الليبرالية إنما هو فى الحقيقة مجتمع محبط وعدوانى ومليئ بشتى أساليب الكبت والضغوط التى تمارس على الأفراد مما يتوجب معه وجود صفوة من المثقفين الذين يسعون ويعملون على إزالة هذه القوى الغاشمة والتى لا سبيل أمامها لتحقيق هذا إلا عن طريق الثورة Revolution. ففى اعتقاده أن التقدم العلمى والتكنولوجى الذى يطبع كل جوانب الحياة والوجود الإنسانى وإن كان يخلق معه من القوى والعوامل الكامنة فى النظام ويبدو أنها تقاومه إلا أن المشكلة هى فى كيفية التحول من الإمكان إلى الفعل وفى اعتقاده أن الفلسفة عليها مهمة أن تجعل الناس مدركين لحقيقة البيئة والواقع الاجتماعى الذى يسعون إلى تغييره. وإن كانت بعض كتاباته الأخرى قد حاول فيها أن يحدد القوى والشروط التى يلزم توافرها كيما توجد الصفوة الثورية التى يقع عليها عبء التغيير المنشود.

★ ★ ★

يعتبر عالم الاجتماع الفرنسى مارسيل موس واحدا من أساطين علم الاجتماع وبخاصة علم الاجتماع الفرنسى الكلاسيكى الذى ورث تقاليده عن اميل دور كايم والتى ظل مرتبطا بها وأمينا عليها حتى وفاته عام ١٩٥٠ بعدما خلف العديد من الدراسات والبحوث التى سجلتها المجلة السنوية لعلم الاجتماع L'Année Sociologique بعدما استوعب المنهج الدوركايمى فأضاف إلى علم الاجتماع الفرنسى الكثير وبخاصة فى ميادين اللغة والدين والثقافة والسحر والفولكلور فكان بذلك مؤرخا للأديان وعالما فى اللغات (السنسكريتية بالذات) إضافة إلى علم الاجتماع الدينى الذى اهتم فيه ببحث الظاهرة الدينية والنظم الدينية فى ضوء تاريخها ومن خلال تتبع أصولها وماضيها والمراحل التى تطورت فيها إلى العصر الحديث.

ولقد ولد مارسيل موس فى ابينال Épinal بفرنسا عام ١٨٧٢ فى أسرة مشغولة بالفكر وبالثقافة ولا عجب فى ذلك فقد كان أميل دور كايم أحد أعضائها (خاله) فنشأ فى كنفه وتحت رعايته فتشرب فكره ومنهجه اللذين سار على هديهما طوال حياته العلمية. ومع ذلك فقد كانت له شخصيته التى تختلف فى بعض جوانبها عن شخصية أستاذه. فإذا كان دور كايم فيلسوفا قبل أن يكون عالما فإن مارسيل موس لم يكن فيلسوفا وإنما كان عالما ولذا فقد اصطبغ منهجه وفكره بصبغة خاصة نزولا على منهجه الموضوعى الدقيق الذى يركز فيه على دراسة الظواهر المشخصة كيما يبتعد عن تجريدات الفلاسفة وتفسيراتهم بعدما كانت غارقة فى الدراسات الدوركايمية والأبحاث الوصفية والفلسفية التى خلفتها كتابات أوجيست كونت Comte. فعلم الاجتماع عنده له مفهوم خاص هو دراسة الظواهر الاجتماعية الكلية Phénomène Sociaux Totaux أى فى كليتها ومجموعها المتكامل ويعالجها كما تتمثل فى أشكالها ونماذجها وحركاتها وانتقالها. وهذه ناحية اقترب بها ولا شك من الامبريقية مفجرا بذلك ثورة علمية فى ميدان علم الاجتماع الفرنسى.

ولا يتسع المجال هنا للإحاطة بكل الميادين التى كتب فيها مارسيل موس ولكن من المهم أن نشير هنا إلى أنه فى محاولته دراسة النظم الاجتماعية ومهمتها كان

يهتم اهتماما أساسيا بدراسة البناء الاجتماعى الكلى الذى يوجد فيه النظام موضوع الدراسة الأمر الذى كان يرى أنه يستدعى أمرين الأول دراسة البناء الاجتماعى من الخارج معتبرا هذا ضرورة منهجية تحتمها الدراسة الحقلية والثانى دراسته من الداخل وهذه ضرورة يلتحم بها الباحث بالحياة الاجتماعية ويجعل منهجه أقرب إلى مناهج الأنثربولوجيين فى دراستهم للمجتمع.

وفى مقدمة اهتماماته دراسته ومعالجته للظاهرة الدينية. وإذا كان دور كايم قد سبق وصدر له كتابه «الأشكال الأولية للحياة الدينية» Les Formes El-ementaires de la Vie Religieuse (١٩١٢) فقد صدر لمارسيل موس كتابا فى المجال نفسه أصدره بالاشتراك مع زميله أو بير Hubert تحت عنوان «مقتطفات من تاريخ الأديان» Melanges d'Histore des Religions (١٩٢٩) عالج فيه ظاهرة الدين واهتم بتفسيرها. والتفسير عنده كان يعنى إقامة نسق عقلى يربط الظواهر ويصل ما بين الوقائع والأحداث متبعا الظاهرة منذ بداياتها الأولى البسيطة منتهيا إلى أكثرها تطورا وأشدها تعقيدا وتركيبا. والحقيقة أن اهتمامه بالظاهرة الدينية كان قد بدأ من قبل هذا الكتاب بوقت طويل. فقد صدر له وهو لم يزل فى السابعة والعشرين من عمره كتاب تحت عنوان «دراسات فى طبيعة القربان ووظيفته» Essai Sur le Nature et le Fonction des Sacrifice (١٨٩٩). وعموما فيرتبط بهذا الميدان دراساته للسحر الذى نظر إليه على أنه ظاهرة اجتماعية فناقش تصوراته ومنطقه وأحكامه وقوانينه.

ولكن دراسته للهدية تعتبر من أهم انجازته العلمية التى مارست تأثيرها على الكثير من الطلاب والباحثين حتى إن هذه الدراسة عن الهدية وعن نظم التهادى والتبادل والتى ظهرت فى كتاب بعنوان «مقال عن الهدية» Essai Sur le Don: Forme Archiac de l'exchanges (١٩٢٥) قد استعان بها مالينوفسكى كأساس لدراسته لنظام الكولا الذى يعنى نوعا من الاتفاق أو التعاقد بين سكان التروبرياند الذين درسهم وكذلك نظام البوتلاش الذى يعتبر أقدم النظم الاقتصادية فى المقايضة والتبادل والتجارة.

وعلى العموم فقد صدر له فى آخر أيامه كتابه الذى يحوى نظريته ومنهجه الاجتماعيين وكان بالاشتراك أيضا مع أوبير تحت عنوان «علم الاجتماع

والانثـربولوجـيـا» Sociologie et Anthropolgie (١٩٥٠) واحـتـوى على منهـجـه المتكامل الذى استند فيه إلى معنى الظاهرة الذى يصعب التوصل إليه إلا فى ضوء الكشف عن العلاقات الهائلة المتشابكة التى تدخل فى البناء الاجتماعى الذى تتميز انساقه ونظمه بتساندها البنائى والوظيفى فى آن واحد معا.

★ ★ ★

واحدة من أبرز الرائدات الأوائل اللاتى قمن بالعديد من الدراسات الحقلية الانثربولوجية الأمر الذى ساعدها على انجازه تكوينها العلمى من ناحية وشخصيتها القوية والجذابة من ناحية ثانية والمناخ ذاته الذى تهيأ لها أثناء دراستها فى جامعة كولومبيا.

ولدت مارجريت ميد فى فيلادلفيا عام ١٩٠١ وتتلمذت من عام ١٩٢٣ على يد فرانز بواس وحصلت على درجة الدكتوراه فى ١٩٢٩ . كما تتلمذت أيضا على يد عالمة الأنثربولوجيا الأمريكية روث بنديكت التى كان شغفها بدراسة العلاقة بين الثقافة والشخصية وراء تغذية الاتجاه الذى سارت فيه مارجريت ميد فكانت أولى دراساتها الميدانية فى ساموا عن «البلوغ فى ساموا» Coming of Age in Samoa وهى الدراسة التى ظهرت نتائجها فى ١٩٢٩ ثم كانت دراستها الثانية فى غينيا الجديدة عن التربية والتنشئة والنمو Growing up in New Guinea (١٩٣١) حيث أبرزت الأنماط الثقافية التى تتبعها هذه الثقافات فى تنشئة صغارها وهى أنماط ذهبت ميد إلى أنها تختلف باختلاف الثقافات ذاتها وليس بسبب عوامل الجنس أو العوامل البيولوجية. وكانت إحدى النتائج الهامة التى كشفت عنها هذه الدراسات أن كثيرا من المشكلات التى تتعرض لها حياة الفتاة المراهقة (والمراهقة ظاهرة عامة فى كل المجتمعات الإنسانية) والتى توجد فى المجتمع الأمريكى لا وجود لها فى ساموا مما يعنى أنها تظهر فقط مع وجود أنواع أو أنماط معينة من البيئة والتنشئة الاجتماعية.

وبتعبير آخر أكدت مارجريت ميد على الدور الحيوى للبيئة وللثقافة فى هذه العمليات الاجتماعية وهو ما عززته على أى الأحوال بدراستها التى أجرتها فى ثلاثة مجتمعات مختلفة ونشرت تحت عنوان «الجنس والمزاج فى ثلاثة مجتمعات بدائية» Sex and Temperament in Three Primitive Societes (١٩٣٥) وأبرزت فيها الاختلافات الثقافية التى ترتبط بالجنس على أنها لا صلة لها بمقولات الذكورة والأنوثة وإنما الاختلافات الثقافية هى التى يرجع إليها الاختلاف فى التنشئة بل وما قد يتصف به الأفراد من الجنسين من صفات وخصائص وهو ما أكدته منهجيتها القائمة على الملاحظة بالدرجة الأولى وليس على الاحصاءات والتقارير والروايات.

بيد أن هذا الاهتمام بالعمل الميدانى لا يعنى أن مارجريت ميد لم يكن لها اسهامها النظرى فمن بين أعمالها التى تمتعت - وحتى اليوم - بمزيد من التقدير وبخاصة أثناء عملها بمتحف التاريخ الطبيعى «الذكر والأنثى» Male and Female (١٩٤٩) و«الأنثربولوجيا: علم إنسانى» Anthropology: A Human Science (١٩٦٤) و«خطابات من الميدان» Letters From The Field (١٩٧٨) وقد يكفى تقديرا لها أنها اختيرت وهى فى الثانية والسبعين من عمرها رئيسة لرابطة العلوم الأمريكية. كما حصلت فى العام ذاته الذى توفيت فيه (١٩٧٨) على ميدالية الحرية التى تعتبر أعلى وأرفع تقدير أمريكى يقدم للأفراد.

★ ★ ★

عالم الاجتماع الأمريكى روبرت ميرتون أحد أقطاب الوظيفية فى العصر الحديث اهتم اهتماما كبيرا بإبراز دور التجربة العقلية فى تحقيق التوازن والتكيف داخل النسق الاجتماعى وتشعبت اهتماماته الأصيلة فشملت سوسيولوجيا العلم والمهن والحرف والنظرية الاجتماعية والاتصال الجماهيرى كما سيطرت علي ذهنه منذ وقت مبكر المشكلة الاجتماعية فسعى جاهدا لتشييد نظرية خاصة فى السلوك الانحرافى أقامها أساسا على تحليله النظرى لصور عدم التوافق والتكيف الاجتماعيين.

ولد ميرون فى فيلادلفيا عام ١٩١٠ وبعد أن حصل على درجة الدكتوراه فى عام ١٩٣٦ من جامعة هارفارد التحق بها حيث قضى حوالى ثلاثة أعوام عمل بعدها فى جامعة تولان Tulane فى نيو أورليانز (٣٩ - ١٩٤١) ثم التحق بجامعة كولومبيا حيث أصبح أستاذا للاجتماع فى ١٩٤٧ . هذا بالاضافة إلى عمله كمدير مساعد لمكتب البحوث التطبيقية (١٩٤٢ - ١٩٧١) حيث ارتبط بعلاقة وثيقة مع بول لازر سفيلد فأثر كل منهما فى الأخر حيث أخذ منه وضوح منطقه ومنهجيته وأساليبه الكمية والكيفية وأثار ميرتون فى زميله اهتمامه بالدراسات التاريخية وبقضايا علم الاجتماع.

فى كتابه الشهير «النظرية الاجتماعية والبناء الاجتماعى» Social Theory and Social Structrure (١٩٤٩) حدد ميرتون بوضوح طبيعة العلاقات المتبادلة بين النظرية الاجتماعية من ناحية والبحث الامبريقى من ناحية ثانية مؤكدا بذلك على ملامح مدخله البنائى الوظيفى فى دراسته المجتمع وتناوله للمشكلات الاجتماعية. وتتمحور الرؤية الأساسية للبنائية الوظيفية للمجتمع والعلاقات القائمة والمتبادلة بين النظم القائمة فيه أكثر من التأكيد على علاقة الأفراد أو حتى الجماعات. وساعده هذا التصور فى أن يقدم بعض المفهومات الأساسية التى أصبحت ضرورة للتحليل الوظيفى مثل مفهوم الوظيفة الكامنة ومفهوم الوظيفة الظاهرة. على الرغم من اعتقاده أن مفهوم الوظيفة نفسه مفهوم غامض وغير متفق عليه إلى حد بعيد. ولهذا فقد حاول توضيح المفهوم من وجهة نظره فأورد المعانى التى يستخدم فيها وذلك فى ضوء المسلمات الأساسية التى يقوم عليها المنظور الوظيفى. وبتعبير آخر يمكن القول بأن ميرتون قد قدم فى هذا الكتاب نموذجا أو إطارا تصوريا منظما

للوظيفية من خلال عرضه الدقيق لجوهر التحليل الوظيفى واجراءاته وأساليب البحث فيه بالإضافة إلى التفرقة التى أقامها بين مفهومى الوظيفة الكامنة والوظيفة الظاهرة.

ولكن ميرتون يرجع إليه الفضل فى ادخاله مفهوم البدائل الوظيفية Func-tional Alternatives الذى يلعب دورا محوريا فى التحليل وخاصة عندما نتخلى عن التسليم بفكرة الوظيفة التى ينطوى عليها بناء اجتماعى معين بمعنى أنه يركز على مدى التنوع الممكن فى الوسائل كيما نستطيع أن نحقق مطلبا وظيفيا. وعموما فإن هذه المفاهيم ترتبط بمفهوم آخر هو مفهوم المعوقات الوظيفية Disfunction الذى يمثل بدوره أداة تحليلية هامة لفهم ودراسة الديناميات والتغير.

ولقد تأدت به هذه الاهتمامات إلى التركيز على أمرين بذاتهما هما أولا اهتمامه بسوسيولوجيا العلم حيث درس العلاقة بين التفكير البيوريتانى Puritan وظهور العلم وما صاحبه من تطور تكنولوجى كان له أبعد الاثر فى إحداث التغير الاجتماعى وأيضا ما صاحبه ونجم عنه من مشكلات. ومع أنه أصدر فى وقت مبكر جدا كتابه «العلم والتكنولوجيا والمجتمع فى انجلترا القرن السابع عشر» Science, Techonology and Society in Seventeenth Century England (١٩٣٨) إلا أنه عاد للاهتمام بالقضية ذاتها بعد ذلك بسنوات فظهر كتابه «علم اجتماع العلم» The Sociology of Science (١٩٧٣) وكان من أهم ما أوضحته هذه الكتابات موقفه من الطبيعة الأمبريقية لعلم الاجتماع حيث عاب عليه اهتمامه بالمسائل والمشاكل الصغيرة التافهة مهاجما بذلك الاتجاه الأمبريقى الذى يسم العلم على حين ظلت المشكلات الكبرى الفقر والطبقة والحروب بعيدة عن التناول.

أما الأمر الثانى فيتمثل فى دراسته للانحراف التى انطلق منها بدءًا من تساؤل أساسى عن أسباب التباين فى معدلات وقوع الانماط والأشكال المختلفة من الانحراف وارتباط هذه الأنماط والمعدلات بالبناءات الاجتماعية المختلفة وهذه قضية من الواضح أنها ذات طابع دور كايمى خاصة وأن مفهوم الأنومى Anomie الذى يرجع إلى دوركايم يلعب دورا محوريا فى نظرية ميرتون عندما يقرر أن السلوك المنحرف كالجريمة والجناح والانتحار والطلاق والأمراض النفسية وما إلى ذلك إنما تنشأ كلها عن تلك الظروف ذاتها التى تلابس البناء الاجتماعى أى أنها

نتاج للأنومى أى الصدام والصراع بين الوسائل والطرائق التى تقرها القواعد والنظم الاجتماعية وبين الأهداف المفضلة ثقافيا وبخاصة عندما تتسع الهوة بينهما أى بين ما هو ممكن فى الواقع وما تضمه الثقافة من أهداف يحاول البعض الوصول إليها على الرغم من أنه لا توجد واقعيا الفرصة المتكافئة أمام الأفراد أو الجماعات نتيجة للتفاوت فى المراكز والانتماءات الطبقية.

وعموما فإن ما لاشك فيه هو أن ميرتون كان مبدعا وخلاقا وهو يتناول جانبى النظر والتطبيق على ما يظهر من كتاباته العديدة التى من بين أهمها «الاغراء الجماهيري» Mass Persuation (١٩٤٦) و «فى علم الاجتماع النظرى» On Theoretical Sociology (١٩٦٧) و«النظرية الاجتماعية والتحليل الوظيفى» Social Theory and Functional Analysis (١٩٦٩) و«البحث الاجتماعى الكيفى والكمى» Qualitative and Quantative Social Research (١٩٧٩) وهو كتاب اشتمل على عدة مقالات كتبها كتحية وتقدير لزميله بول لازرسفيلد فقد كانا فريق عمل عبقرى أثر فى كثير من الدارسين على مدى علاقة استمرت من ١٩٤١ - ١٩٧٦ .

★ ★ ★

لعل واحد من الأنثربولوجيين قد نجح في نشر وتدعيم مبادئ المدرسة الثقافية التاريخية مثلما نجحت منهجية عالم الأنثربولوجيا السويسرى الفريد ميترو بإسهاماته الرائدة فى فهم التاريخ الأثنولوجى للعديد من ثقافات العالم الجديد والعالم القديم وبخاصة ثقافات جنوب أمريكا والثقافات الأفريقية ومدى امتزاجها وتأثيرها فى ثقافة هايتى Haiti .

وقد ولد ميترو فى لوزان بسويسرا عام ١٩٠٢ وعمل مع عدد من أبرز شباب الأنثربولوجيين الأوروبيين فاكتسب من الخبرات ما هيأ لأن تتضح مفاهيمه الخاصة وتقاليده البحثية التى تشكل العمود الفقرى لمدخله فى الأنثربولوجيا التاريخية والذى بدأ فى ممارسته وتطبيقه وبخاصة عندما أصبح مديرا للمعهد الأثنولوجى التابع لجامعة تاكيومان Tucumàn بالأرجنتين إذ أمكنه خلال الفترة من عام ١٩٢٨ إلي ١٩٣٤ من انجاز عملين كلاسيكيين يعتبران من أهم مؤلفاته. الأول (١٩٢٨) عن التاريخ الأثنولوجى لتأثير هنود توبينامبا Tupinamba البرازيليين الذين لعبوا دورا كبيرا فى مساعدة البرتغاليين على التكيف مع العالم الجديد.

بعد ذلك رافق إحدى البعثات العلمية إلى جزيرة إيستر Easter Island فيما بين ١٩٣٤ و ١٩٣٥ ومن ثم انضم إلى متحف بيشوب Bishop Museum فى هونولولو Honolulu حيث انشغل فى دراسة حقلية ضخمة فى كل من الأرجنتين وبوليفيا وقد ظهرت نتائج هذه الدراسة فى كتابين رئيسيين الأول بعنوان «اثنولوجيا جزيرة ايستر» Ethnology of Easter Island (١٩٤٠) والثانى كان بعنوان «جزيرة الباكيه» L'Ile de Pâques (١٩٣٥).

ولقد أثار نشره للنتائج التى توصلت إليها دراسته لجزيرة ايستر ضجة هائلة بما أثارته من جدل طويل إذ أعلن عن أن سكانها من البولينيزين (بولينيزيا) سواء من حيث التكوين الفيزيقى أو الثقافى هذا بالاضافة إلى اكتشافه أن أنماط وأسلوب النحت والتشكيل التى تشتهر بها الجزيرة هى اختراع وخلق وطنى أكثر منه آسيويا أو مما ترجع أصوله إلى الهنود الأمريكيين.

ولكن فى سنوات حياته اللاحقة انطبعت حياته العلمية والعملية حتى وفاته (١٩٦٣) بطابع مميز أضاف كثيرا إلى عطائه العلمى. ففى عام ١٩٤١ التحق بمكتب الأنثولوجيا الأمريكية التابع لمعهد سميث فى واشنطن وانشغل من هذا التاريخ وحتى عام ١٩٤٥ فى عمل نموذجى عن إعادة بناء وهيكلة كتاب المكتب السنوى عن الهنود الأمريكيين وما جاء عام ١٩٥٩ حتى كان قد انجز سبعة مجلدات ضخمة إلى جانب أعبائه وهو يحاضر متنقلا ما بين مختلف الجامعات فى الولايات المتحدة والمكسيك وغيرها من الأماكن.

أما خلال الفترة من عام ٤٦ إلى ١٩٦٢ أى قبيل وفاته بعام واحد فقد شغل عدة مناصب فى الأمم المتحدة وبخاصة فى (اليونيسكو) حيث قام ببعض الدراسات فى الأمازون (١٩٤٧ - ١٩٤٨) وفى هاييتى (١٩٤٩ - ١٩٥٠) كما تولى خلال الفترة من ١٩٥٠ إلى ١٩٥٨ مهمة الإشراف على سلسلة من المؤلفات والأبحاث والسير والنشرات التى تتناول قضايا الجنس والسلالات ومشكلات الأقليات والعلاقات الدولية والعنصرية بوجه عام. كما صدرت له بعض المؤلفات الهامة التى لقيت إقبالا هائلا ربما لغرابة موضوعاتها ولسهولة أسلوبها وعرضها وعرض مضامينها بالرغم من طابعها العلمى.

ففى عام ١٩٥٩ صدر له كتاب تحت عنوان «الفودو فى هاييتى» Voodoo in Haiti حيث تناول هذه الممارسة (السحرية) تفصيلا ولكن من خلال نظرته إليها على أنها نسق بنائى ثقافى ودينى معقد. ومن ثم فقد سعى إلى البحث فى أصولها الأفريقية بالاضافة إلى تناوله لعلاقتها بالكاثوليكية فى الجزيرة.

★ ★ ★

ميلز س. رايت (١٩١٦ - ١٩٦٢) MILLS, C. Wright

شارلس رايت ميلز عالم الاجتماع الأمريكى ارتبطت جهوده بدراسة الماركسية والفيبرية وبمختلف القضايا وثيقة الصلة بالطبقة المثقفة وقضايا المثقفين وبدورهم الواجب القيام به فى الحياة الثقافية الحديثة.

ولقد ولد ميلز فى مدينة واكو Waco فى تكساس بالولايات المتحدة الأمريكية فى شهر أغسطس عام ١٩١٦ وكأستاذ لعلم الاجتماع فى جامعة كولومبيا فقد برز اهتمامه مع لفيف من العلماء اللامعين من جيله منهم هانز جيرث Hans Gerth بفحص الماركسية والتقليد الفيبرى ومواقفهم من المشكلة الاقتصادية وبخاصة الحتمية الاقتصادية وأيضا مشكلات الطبقة التى أضاف إليها أحد المفاهيم أو المقولات الهامة فى فهم الطبقة وتحليل علاقاتها الداخلية والخارجية على السواء وهى مقولة المركز أو المكانة Status وهى اهتمامات تدخل ضمن النطاق الأوسع الذى يعبر عنه موضوع التغير الاجتماعى وما يثيره من مشكلات وبخاصة تلك التى تتعلق بتكامل المجتمع وعلى أى نحو يكون أو يتم هذا التكامل. والواقع أن الأساس لكل هذه القضايا وتحليله النظرى لها قد ضمنه كتابه المعنون «الشخصية والبناء الاجتماعى» الذى ألفه بالاشتراك مع جيرث Character and Social Structure (١٩٥٣) الذى يعتبره الكثيرون من بين أسس علم الاجتماع النظرى المعاصر الهامة. حيث أبرز مفهوم الدور كمفهوم محورى يوحد بين النظرية الاجتماعية والنظرية السيكولوجية باعتبار أن البناء يتكون من العديد من الأدوار التى ترتبط بالأنساق وبالنظم المختلفة ومن ثم يسهل تحليل البناء فى ضوء تحليلنا لهذه الأدوار مما يترتب عليه أنه كلما كانت الأدوار متسقة كان تكامل البناء أعمق وأوضح.

وبالرغم من أن استخدام المنهج التاريخى عادة ما تكتنفه بعض المخاطر التى تتمثل فى التركيز على ما هو ملموس ويتصف بالتفرد فقد توسع ميلز فى استخدامه لهذا المنهج لدرجة أن معظم مؤلفاته يمكن وصفها بأنها عبارة عن تفسيرات تاريخية للعلوم الاجتماعية فى النسق العالمى المعاصر. ولكن الذى لاشك فيه هو أن ميلز كان على وعى بهذه المخاطر وربما كان هذا دافعه الأساسى وراء مؤلفه الممتاز الذى نشره بعنوان «الخيال الاجتماعى» The Sociological Imagination (١٩٥٩) حيث

ضمن هذا الكتاب تلخيصا عميقا للنزعة الإنسانية التى اعتقد أنها كامنة وراء علم الاجتماع وبذلك فهو يمثل رؤية اجتماعية إلى العالم حيث يدعو إلى علم اجتماعى ذى نزعة إنسانية مما يعنى انتقادا للنزعة الامبريقية والنظريات الكبرى معا.

ولقد حدد هذا الموقف النظرى والمنهجى مساره الفكرى خلال الخمسينيات من القرن الماضى وحتى وفاته فى نيويورك عام ١٩٦٢ حيث سعى خلال هذه السنوات إلى توضيح قناعة أساسية ترسخت فى أعماقه مؤداها أنه لا يتعين على عالم الاجتماع أن يقنع بدوره كملاحظ أو مراقب تشغله فحسب ما يطلق عليه «الامبريقية المجردة» وإنما عليه الاهتمام بالدرجة الأولى بمختلف النشاطات التى تؤكد مسئوليته الاجتماعية مؤكدا بذلك على حقيقة أن المثقفين الأمريكيين قد فشلوا بوجه عام فى ريادتهم الأخلاقية لدرجة أن صاروا هامشيين بعدما رضوا بتسليم كل شيء لأيدى الآخرين على نحو ما يكشف عنه كتابه «الياقات البيضاء» White Collar (١٩٥١) الذى تضمن تحليلا للطبقة الوسطى الأمريكية وأيضا كتابه «صفوة القوة» The Power Elite (١٩٥٦) الذى ذهب فيه إلى أن أمريكا تحكمها مجموعة من الصفوات ذات المصالح الثابتة المترابطة. ومع أنه قدم فى عام ١٩٥٨ كتابه عن أسباب الحرب العالمية الثالثة The Causes of World War. III إلا أن آخر كتبه اتجه به اتجاها آخر وإن لم يكن بعيدا عن جوهر موقفه إذ عكس مؤلفه «الماركسى» The Marxist (١٩٦٢) اهتمامه بالثورة الكوبية من وجهة النظر الكاستورية. موضحا عدم ارتياحه للاستخدام الأيديولوجى الذى يتمسك به الدارسون فى ضوء انتقادات فيبر معبرا عن وجهة نظره الأخلاقية التى تتمثل فى توظيف المعرفة لخلق المجتمع الطيب السليم ومؤكدا بذلك على المسئولية التى يتعين على العلماء الوفاء بها فى وجه السلطة والإغرا سواء بسواء.

★ ★ ★

عالم الاجتماع والاقتصاد الأمريكى ويلبرت مور من أبرز العلماء وكبار المتخصصين فى دراسة التغير الاجتماعى والتطور الاجتماعي من منظور أميل إلى أفكار التطورية المعتدلة التى حاولت تصنيف نظريات التغير تصنيفا بنائيا لا يهتم فحسب بالتعرف على مصارد التغير واتجاهاته وإنما بالاهتمام أيضا بديناميات التغير وما تحدثه من تأثيرات فى المدى القصير أو الطويل فى الوحدات البنائية المختلفة التى قد تكون نظاما اجتماعيا أو مجتمعا محليا أو المجتمع القومى بأكمله وفتح بذلك المجال أمام علماء الاجتماع والسياسة والاقتصاد والأنثربولوجيا المهتمين بدراسة التغير الاجتماعى وما يصاحبه أو ينتج عنه من مشكلات والذين يسعون إلى وضع نظريات عامة تفسر التغير وأسبابه واتجاهاته وشدته وتأثيراته وبخاصة فى ضوء رؤاه وفرضياته المتعلقة بامكانات التنبؤ التاريخى بمسارات التطور والتغير الاجتماعى ومعتمدا بشكل قوى على التحليل الأمبريقى المنظم.

ومور له العديد من الاسهامات فى دراسة التغير الاجتماعى نشرها فى المجلة الاجتماعية الأمريكية بالاشتراك مع بارسونز الذى ركز بصفة خاصة على ما أسماه «العموميات التطورية فى المجتمع» بينما ركز ويلبرت مور أساسا على ما أطلق عليه «التنبؤ بالثغرات فى التغير الاجتماعى» وفروضه التى أقام عليها تنبؤه التاريخى ومقوماته الأساسية لهذا التبؤ.

وفى عام ١٩٦٣ ظهر كتابه الهام المعنون «التغير الاجتماعى» Social Change والذى يعتبر (بالرغم من صغره) من أعظم المحاولات التى هدفت إلى إقامة نظرية فى التغير لاحتوائه على مناقشة ولئن كانت قصيرة إلا أنها كانت واضحة وعميقة فى إبرازها لطبيعة واتجاه التغير وجذوره وتحولاته وديناميانه مستخدما بعض المفاهيم والتصورات التى تعتبر قريبة فى الشبه وحتى فى المعنى لتلك التى عادة ما يستخدمها بارسونز. فعند مور تلعب عملية الانتقال وعملية الاقتباس الثقافى دورا جوهريا فى إحداث التغير. ولكنه يرى أن هاتين العمليتين لا تحدثان بطريقة عشوائية أو عمياء أو آلية بين المجتمعات. ويدلل على ذلك أن المفهومات والتصورات الثقافية لا تستقبلها الجماعات أو المجتمعات بطريقة أو استجابة واحدة فقد تلقى

قبولا من جماعة دون الأخرى كما قد تلقى مواقف يمتزج فيها الشك والرغبة معا ناهيك عما قد يطرأ على العناصر المقتبسة من تعديل أو تحوير أو حتى تبقى على حالها إذا ما كانت تتناسب وتتلاءم مع البيئة الجديدة وطبيعة نظامها القيمى على وجه الخصوص.

وانطلاقا من هذا التصور المحورى يتوصل إلى محددات التنبؤ التاريخى الذى حصر إمكانية حدوثه ارتباطا بالمدى القصير فقط مما يعنى صعوبة (أو حتى استحالة) التنبؤ باتجاهات التغير على المدى الطويل وهو ما يرتبط على أية حال بالقدرة على المثابرة وبالتجارب المستفادة وبمدى استمرار الاتجاهات المنتظمة والتخيط الواعى للمستقبل.

وإن كان قد اعتبر الثورات الاجتماعية بالذات من بين العوامل الهامة المعجلة باحداث التغير وربما تحديد شدته فى أغلب الأحيان إضافة إلى ما تحدثه الثورات من تغيرات تلحق بالنظم والبناء الاجتماعى بأكمله بما لهذا من تأثيرات ومضاعفات مباشرة وغير مباشرة على السواء.

ومهما يكن من أمر فقد اهتم فى معرض حديثه عن موضوع الانتشار والانتقال الثقافى بالحديث عما تتجه إليه كثير من المجتمعات إلى التصنيع والتحديث وبخاصة فى السنوات الأخيرة وبخاصة فى مجالات الابتكارات التكنولوجية وأساليب العمل والإنتاج والإدارة الحديثة وإن لم يغفل فى كل هذا عما قد يفد على هذه المجتمعات من قيم وأفكار قد تتعارض أو حتى تصطرع مع ما يوجد فى المجتمع من قيم وأفكار أصيلة الأمر الذى يحدث غير قليل من مظاهر التأرجح بين القديم والحديث إن لم يكن التوتر والصراع والصدام وما ينجم عنها من آثار سلبية من الصعب التنبؤ بمداها وخطورتها على ما أوضحه فى كتابيه اللذين نشرهما تباعا تحت عنوان «التصنيع والعمل» Industrialization and Labor والأخر بعنوان «العلاقات الصناعية والنظام الاجتماعى Industrial Relations and Social Order فى العام نفسه (١٩٥١).

★ ★ ★

عالم انثربولوجى أمريكى مارست كتاباته تأثيرا فائقا على الدراسات القرابية لاخضاعه البحث القرابى للطريقة العلمية الاحصائية المقارنة فبلور بذلك أوجه المشابهات والأختلافات فى أنظمة المجتمعات بالاضافة إلى دوره الكبير فى إبراز المراحل التطورية والجوانب الديناميية للبناء الاجتماعى بصورة عامة والتركيب أو النظام القرابى بصفة خاصة مما فتح الطريق واسعا أمام أجيال الباحثين لأن يتعمقوا ويطوروا البحث القرابى لا بالاعتماد على أسلوب الوظيفيين الشكليين ممن تأثروا برادكليف براون مثلا وساروا على منهجيته ولكن فى ضوء تحليل وتفسير ما يطرأ على المجتمعات والجماعات من متغيرات علاوة على أنه نجح فى وضع الخطط الدراسية التى تساعد على دراسة العلاقات بين القرابة وباقى المؤسسات الاجتماعية الموجودة فى قلب المجتمع المعين. ومستعينا فى كل هذا بالكم الهائل من المعلومات التى أمدته بها دراسته الرائدة المقارنة التى أجراها فى ٢٥٠ مجتمعا كعينة أثنوجرافية عالمية وغطت (الدراسة) كل منحى من مناحى الحياة الثقافية المعروفة.

وقد ولد ميردوك عام ١٨٩٧ فى ميريدن Meriden بالولايات المتحدة الأمريكية ودرس التاريخ فى جامعة ييل Yale ونال درجته العلمية الأولى عام ١٩١٩ ثم درجة الدكتوراه فى عام ١٩٢٥ بعدما تخصص فى الأثنولوجيا المقارنة. وبدأ حياته العملية بالتدريس فى الجامعة التى تخرج فيها وظل بها طوال الفترة من عام ١٩٢٨ إلى عام ١٩٦٠ ثم أصبح أستاذا للأنثربولوجيا فى جامعة بتسبرج وقد أصبح حجة فى الأثنولوجيا المقارنة واثنوجرافية الشعوب الأفريقية والقبائل الاسترالية إلى جانب النظرية الاجتماعية. أما شهرته فترجع أساسا إلى أنه كان الباحث الرئيسى الذى خطط لواحد من أهم وأضخم المسوح الثقافية المقارنة الذى اضطلع به معهد العلاقات الإنسانية بجامعة ييل فى عام ١٩٣٧ وهو المسح الذى شمل عينة عالمية من مائتين وخمسين مجتمعا كما سبقت الإشارة.

وليس من شك في أن موضوع القرابة كان المحور الأساسى لكل تفكيره وذلك على اعتبار أن نظام القرابة وما يتضمنه من مواقف وقضايا ومشكلات تتعلق بالزواج وبالعائلة يحتل مركزا رئيسيا فى الدراسات الأنثربولوجية (والاجتماعية

أيضا) التى تولى اهتماما خاصا لدراسة المجتمعات البدائية والتقليدية والمتأخرة عموما من ناحية، وعلى اعتبار أيضا أن القرابة وبخاصة فى هذه المجتمعات تلعب دورا هاما فى حياتها. فالنظام القرابى يمثل المحور الذى تنتظم حوله كل النشاطات والسلوكيات من ناحية ثانية الأمر الذى تتضاعف أهميته بحقيقة أنه لا توجد جماعة بشرية تخلو من نظام العائلة أيا ما كان شكلها وتركيبها.

وليس معنى هذا أن ميردوك هو أول من لفت الأنظار إلى هذا الموضوع فقد كان محل دراسات سابقة قام بها كثير من العلماء (خصوصا من التطوريين) فى القرن التاسع عشر بالذات ولكن الحديد فيما يتعلق بالأستاذ ميردوك هو منهجه ودراساته المقارنة والإحصائية خاصة وهو يمزج بين اللغويات والاجتماع وعلم النفس السلوكى والتحليل النفسى فى معالجته للمادة الأثنوجرافية التى بين يديه والتى أمدته بها دراساته الواسعة للحركات الثقافية ونظام العائلة والأسرة ونظم وأنماط الاتصال بين الشعوب الأفريقية وغيرها.

ونظرا للدور الهام الذى تلعبه علاقات وروابط القرابة (وهى متداخلة ومتشابكة إلى حد بعيد) فقد اهتم ميردوك كثيرا بتوضيح أهم المفاهيم والتطورات التى يجرى استخدامها وتداولها ربما بطريقة غامضة مثل مفهوم العائلة والبدنة والعشيرة والخصائص التى تتصف وتتميز بها كل منها كالاشتراك مثلا فى وحدة النسب فى العشيرة. وفى ذات الوقت وضح اهتمامه أيضا بالمصطلحات القرابية وما يرتبط بها من أمور متعلقة بالتفرقة بين الأب الفيزيقى والأب الاجتماعى وبأشكال تصنيف العائلة والأسس التى يتم التصنيف فى ضوئها كأن يكون على أساس الأبوة والبنوة أو على أساس الأجيال أو حتى شكل الزواج ما إذا كان أحاديا أو متعددا وداخليا أو خارجيا. وما يرتبط بكل هذا من جوانب وعلاقات مثل النسب ونظم النسب المختلفة فى خط الذكور أو الإناث وبالتالى حقوق الإنتماء وحقوق الميراث وحتى حقوق الإقامة ذاتها. علاوة على اهتمامه ببعض المظاهر والقواعد السلوكية مثل قواعد التحريم والتجنب والاختلاط فيما بين الرجال والنساء وفقا لدرجة القُربى بالدرجة الأولى. وكان من الطبيعى أن يهتم بدراسة الطقوس والشعائر على اختلاف نوعها ووظيفتها مثل طقوس الترشيد والتأهيل فى بعض المجتمعات وطقوس الزواج والحمل والمولد والوفاة وطقوس الانتقال وما يتصل به من حكايات وأساطير.

وبوجه عام فقد صدرت للأستاذ ميردوك عدة مؤلفات تعتبر من أمهات ما كتب فى هذا المجال من بينها كتابه المعنون «معاصرونا البدائيون» Our Primitive Contemporaries (١٩٣٤) و«ببليوجرافيا اثنواجرافية أمريكا الشمالية» Ethnographic Bibliography of North America (١٩٤١) وكتابة الفذ عن «البناء الاجتماعى» Sacial Stracture (١٩٤٩) ثم «إطار للثقافات العالمية» Outline of World Cultures (١٩٥٤) ومؤلفه الضخم الذى يعتبر عمله الرئيسى بعنوان «الأطلس الاثنوجرافى» Ethnographic Atlas (١٩٦٧) وكلها كتابات مازالت توجه البحث الأنثربولوجى فى الدراسات القرابية إلى اليوم.

★ ★ ★

عالم الاجتماع والسياسة والاقتصاد كارل جونار ميردال أحد كبار العلماء الذين اهتموا اهتماما خاصا بدراسة جماعات الأقليات سواء كانت أقليات سياسية أو دينية أو عنصرية أو عرقية أو من جنسيات مختلفة مما قد يتكون منها التركيب السكانى لمجتمع معين ولكنها لا تتمازج فيه تماما لتباين الاتجاهات واختلاف الأصول والظروف والأحوال إضافة إلى ما تلاقيه من تفرقة فى المعاملة وفى الحقوق وفى النظرة والتقدير الاجتماعيين بشكل يعكس تمييزا أو تحقيرا يترتبان على تشابك وتداخل العديد من الوضعيات والعوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

والواقع أنه ارتباطا بهذا الاهتمام دارت كتابات جونار ميردال التى كان من الطبيعى أن يفرد فيها حيزا كبيرا لمعالجة المشكلة السوسيواقتصادية من ناحية والمشكلة الثقافية السياسية من ناحية ثانية وما تفرزه هذه المشكلات من وضعيات وقضايا ومشكلات سواء ما كان منها فى الدول النامية أو حتى فى المجتمع الأمريكى نفسه. وربما نزولا على هذا السبب نفسه وضح اهتمامه الفائق بدراسة النظرية الاقتصادية على وجه التحديد بغرض الكشف عن طبيعة العوامل السياسية والاجتماعية وتأثيرها فى تطوير هذه النظرية ونموها. وهو اهتمام بدأ مبكرا فى الحقيقة حيث نشر وهو لم يزل فى الثلاثين من عمره واحدا من أهم كتبه فى هذا المجال تحت عنوان «العنصر السياسى فى نمو النظرية الاقتصادية» The Political Element in Development of Economic Theory (١٩٣٠) ثم نشر بعد ذلك بعدة سنوات كتابه الهام الثانى تحت عنوان «ورطة أمريكية» An American Dilemma (١٩٤٤) عبارة عن دراسة لأوضاع الزنوج فى الولايات المتحدة الأمريكية حيث ألقى الضوء على مظاهر التحامل والتفرقة العنصرية مركزا على إظهار مدى الصراع بين الأفكار المتخلفة التى يرتبط بها السود والتى تكشف عن وضعياتهم الثقافية والسياسية المتدنية والتباين بينها وبين ما يسود البيض ويرتبطون به من أفكار وأيديولوجيات أكثر تفتحا وتقدما. ولقد كان من أهم النتائج التى أسفرت عنها هذه الدراسة التى قدمها ميردال بالاشتراك مع جلايد فيدر Vedder وروناالد تافت Taft الكشف عن الارتباط الوثيق بين طبيعة الظروف التى تعيشها هذه الأقلية (الزنوج)

والزيادة الملحوظة فى معدلات الجريمة والانحراف وسائر مظاهر الصراع لديهم ولدى غيرهم من جماعات الأقلية (المكسيكيين) علي وجه الخصوص مما يمثل تهديدا مباشرا للبيض من ناحية وهزة عنيفة لمكانة السود وعناصر حياتهم التقليدية من ناحية ثانية. مما يتوجب معه سرعة العمل على تحسين هذه الأوضاع وتغييرها بتحسين فرص العمل وظروف السكن والأقامة وما إلى ذلك من مظاهر الرعاية والاهتمام.

وتتابعت كتابات ميردال فى الإطار نفسه ليكشف عن طريق بعض دراساته المقارنة عن طبيعة الظلم الاجتماعى وعدم المساواة التى ترزح تحت ثقلهما العديد من المجتمعات والشعوب. فظهرت له دراسة رائدة تحت عنوان «ميكانيزم عدم المساواة القومية والدولية» Mechanism of National and International In- equaltiy (١٩٥٦) أتبعها بعدم عام واحد بواحدة من أهم الدراسات فى الموضوع بعنوان «النظرية الاقتصادية والأقاليم المتخلفة» Economic Theory and Under Developed Regions (١٩٥٧) حيث لفت الأنظار بشدة إلى أهمية العلاقات السياسية والاقتصادية بين الأمم الغنية والأمم الفقيرة مركزا بصفة خاصة على إبراز طبيعة العوامل الاجتماعية فى التنمية.

لقد كانت إحدى الافتراضات الأساسية التى تسود الفكر الاقتصادى أن التقدم والنمو الاقتصادى هو مسألة أو مسئولية السياسات الحكومية. ولكن تأسيسا علي هذه الفرضية فقد ذهب ميردال إلى أنه ليس واضحا تماما نوعية التدخل الذى مارسته بعض الحكومات لإثارة وحفز عمليات التنمية وبخاصة خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. ومع أنه ساق الكثير من الأمثلة على هذه الفرضية وبخاصة فى كتابه «دراما آسيوية: بحث فى فقر الأمم» Asian Drama: An Inquiry into the Poverty of Nations (١٩٦٨) إلا أنه أكد على مدى صدقها فى حالة اليابان بالذات وما حققته من طفرات تنموية فى ضوء ما اتبعته الحكومة من سياسات.

ومن الناحية الثانية فقد كان مما يقلقه كثيرا تلك الزيادات المطردة فى السكان مما جعله يفرد جانبا كبيرا من دراساته فى آسيا لهذه القضية بالذات فبين كيف أن هذه الزيادات السكانية مما يهدد تهديدًا مباشرا أية عملية تنموية الأمر الذى انتهى به إلى تقرير تدخل الحكومات لضبط هذه الزيادة عن طريق وضع

السياسات والاستراتيجيات المناسبة المتعلقة بمسائل الخصوبة والزواج والمواليد والوفيات إلى جانب مشكلات الهجرة مما يستلزم ترشيد الوعى من ناحية وسن القوانين المناسبة من ناحية ثانية. وهو ما أوضحه على أى الأحوال فى كتاباته وبخاصة على نحو ما نرى فى كتابه «دولة الرفاهية: التخطيط الاقتصادى وتضميناته الدولية» Beyond the Welfare State: Economic Planning and Its Internatinoal Implications (١٩٦٥).

★ ★ ★

NADEL, SIEGFRIED نادل، سيجفريد (١٩٠٣-١٩٥٦)

بالإضافة إلى نشاطه الميدانى الذى كان معظمه موجها بصفة أساسية للبحث فى أنثربولوجيا أفريقيا فقد اشتهر أيضا باهتمامه الكبير بمشكلات وقضايا النظرية والمنهج التى دارت من حولها كل كتاباته تقريبا التى مازالت تعتبر لليوم مرجعا رئيسيا للباحثين فى الانثربولوجيا التطبيقية على اختلاف توجهاتهم.

إنه عالم الانثربولوجيا والاجتماع سيجفريد نادل ولد فى فيينا فى شهر إبريل عام ١٩٠٣ ومنذ صغره ظهر شغفه بالموسيقى التى درسها فى جامعة فيينا إلى جانب دراسته للفلسفة وعلم النفس. ومع أن ميله للموسيقى انعكس فى كتابته السيرة الذاتية للموسيقار الإيطالى Ferruccio Benvenuto Busoni إلا أنه تحول إلى الانثربولوجيا حيث عمل تحت إشراف مالينوفسكى فى انجلترا لمدة عامين كاملين من عام ١٩٣٢ هيأته لأن يدخل ميدان البحث الحقلى والعمل الميدانى فقام بالعديد من البحوث فى النوبة ونيجيريا واريتريا استغرقت الفترة حتى قيام الحرب العالمية الثانية (١٩٤٠) التى خدم خلالها فى اريتريا وطرابلس.

ولقد قام نادل بالتدريس فى عدد من أكبر الجامعات العالمية حيث عمل فى جامعة لندن للاقتصاد والعلوم السياسية وفى الفترة من ١٩٤٨ إلى ١٩٥٠ كان محاضرا فى الأنثربولوجيا بجامعة ديرهام Durham بانجلترا ثم فى جامعة نورث وسترن ثم استاذا ورئيسا لقسم الانثربولوجيا والاجتماع فى الجامعة القومية الاسترالية فى الفترة من ١٩٥٠ إلى ١٩٥٦ حيث توفى فى يناير ١٩٥٦ فى كانبيرا Canberra وهى رحلة مكنته ولاشك من أن يرتاد الكثير من المشكلات النظرية.

والواقع أن نادل كان ينطلق من تصور أو فهم خاص للبحث الاجتماعى والانثربولوجى وهو فهم يعكس مدى تأثره بالاستاذ مالينوفسكى على وجه الخصوص. إذ كان يذهب إلى أن الحقائق الاجتماعية إنما تصدر عن حقائق سيكولوجية ولهذا فإن الشرح الكامل والتفسير السليم لأى مظهر سلوكى واجتماعى

ينبغى أن يعتمد على معرفة كاملة بالدوافع البشرية والشعور وذلك نزولا على قناعته بأن العمل الأساسى للعلم هو وصف وشرح وتفسير التصرفات والسلوك بغية توجيهها والتحكم فيها.

وفى داخل هذا الإطار صدرت كتاباته وأعماله كلها ميدانية كانت أم نظرية. فصدر له فى عام ١٩٤٢ عمل ضخم بعنوان ABlack Byzantium تضمن تحليلا للأساس النظرى للمنهج الأثنوجرافى ثم «عقيدة النوبة» Nube Religion (١٩٥٤) وأيضا «أرض النوبة» The Nuba Land وكذلك «أجناس وقبائل اريتريا» The Races and Tribes of Eritrea. هذا بخلاف مؤلفاته الأساسية التى اهتمت بالنظرية ومن بينها «أسس الانثربولوجيا الاجتماعية» The Foundations of Social Anthropology (١٩٥١) و«نظرية البناء الاجتماعى» The Theory of Social Structure وهو كتاب ظهر فى عام ١٩٥٨ بعد وفاته بعامين اثنين.

★ ★ ★

إرنست ناجل (١٩٠١ -) NAGEL, Ernest

ولد الفيلسوف والمنطقى الأمريكي إرنست ناجل فى تشيكوسلوفاكيا فى عام ١٩٠١ ولكنه تلقى تعليمه ونال درجاته العلمية من الولايات المتحدة الأمريكية بدءًا من دراسته فى سيتى كوليج فى نيويورك ثم فى جامعة كولومبيا التى قدر له أن يرتبط بها طوال رحلته العلمية التى استغرقت سنى عمره فقد أشرف على تحرير المجلة الفلسفية Journal of Philosophy لمدة تزيد على ١٦ عاما ومجلة المنطق الرمزى Journal of Symblic logic وأيضا مجلة «فلسفة العلم» Philosophy of Science وتأثرا كثيرا بفكر تشارلس بيرس Peirce وجورج سنتيانا Santayana وبرتراند راسل Russell.

وبوجه عام يعتبر ناجل واحدا من كبار أنصار المدرسة الطبيعية فى كولومبيا التى أقامت تفرقة حاسمة وتمييزا قاطعا بين العلوم الرياضية والعلوم الطبيعية متجهة بكليتها إلى الأخذ بالرياضة التى اعتبرتها بمنهجها التحليلى أقرب الاتجاهات إلى مسايرة الروح العلمية. وهو الأساس الذى انطلق منه بفكره الذى عمل من خلاله على تطوير نظريته الخاصة. فالرياضة منهجها استنباطى بمعنى وضع فروض فى صدر أو مقدمة العملية الاستدلالية حيث تستخرج منها النتائج مما يعنى أن برهان صوابها لا يعتمد على أنها منطبقة على وقائع العالم الطبيعى. على حين يبدأ منهج العلوم الطبيعية بالمعلومات والشواهد التى يتم جمعها من الواقع اعتمادا على المشاهدة والملاحظة والتجريب ولهذا كانت القوانين فى العلوم الطبيعية قوانين احتمالية الصدق بينما حقائق ونتائج العلوم الرياضية أقرب إن لم تكن بالغة دائما درجة اليقين.

استهوته إذن منذ البداية الفلسفة الوضعية التى تعنى فى جوهرها النظرة العلمية التى تقضى بأن تنحصر رؤية الباحث العلمى فى حدود ما هو واقع والتى تجعل صدق الحواس أصلا لا يشك فيه أو يناقش. وفى الوقت نفسه استهواه المنطق أيضا الذى هو فى جوهره رياضة ويقضى بتحويل الكيف إلى كم بعيدا عن المناقشات الواسعة والفضفاضة وإنما أقرب إن لم يكن مطابقا للحساب والدقة.

وبالرغم من أن هذا الكلام يعنى أن ناجل كان من أنصار الوضعية المنطقية Logical Positivism إلا أن نظرته كانت ذات طابع خاص. فهى فى رأيه ليست مذهبا بقدر ما هى منهج للنظر وللبحث العلمى ولهذا أطلقوا عليها اسم التجريبية العلمية مرادفا بالضبط للوضعية المنطقية. ولكنه كان أكثر تحديدا عندما سعى إلى تطوير نظرية خاصة لما أطلق عليه الامبريقية المنطقية Logical Empricism . واستدعى هذا مناقشته لبعض المفهومات الرئيسية مثل مفهوم الملاحظة ذاته ومفهوم التجربة وخاصة فى ارتباطها بقضايا الصدق والثبات وامكانيات التحقق التى ذهب البعض إلى أن التحقق عن طريق التجربة إنما يعنى التحقق بواسطة الحالات الفعلية التى يعيشها الفرد وحده على حين أن المعرفة العلمية هى معرفة تقوم على علاقات بنائية تتوحد فيها تجارب الفرد مع تجارب الآخرين.

الامبريقية المنطقية من وجهة نظره يمكن القول بأنها تختلف عن الاتجاهات التى غالى فيها البعض ممن ذهبوا إلى أنه لا معرفة ما لم تبدأ بتحصيل معطيات حسية فى محاولة للبرهنة على أن كل أشكال الاستشهادات والاحالات هى ذاتيات أو وجود يقوم بعيدا عن الملاحظة والتجربة أو لا معنى له وأنه هراء.

إن الفكر لا يكون فكرا بالمعنى الصحيح إلا إذا كانت له نتائج فعالة فى إحداث التغيير المنشود ولهذا فإن امبريقيته المنطقية لا تتجاهل أو تلقى بعيدا بالمشاعر والأفكار وحتى الاتهامات وإنما تقوم على قضيتين أساسيتين هما أولا أن الأجسام أو المادة المنظمة هى الظروف الضرورية لكل الأحداث والنوعيات والكيفيات وللعمليات التى تقع فى الطبيعة والقضية الثانية هى أن مظاهر التكثر والتعددية التغايرات المتكشفة والتى نجدها فى الأشياء بما فى ذلك الملامح الفردية المميزة للأفراد كلها أمور واقعية وحقيقية ولا يمكن اختزالها لأى حقيقة أخرى.

ولقد صدر له عدد هائل من المقالات والدراسات والبحوث التى نشرت فى المجلات التى ترأس تحريرها بخلاف مؤلفاته وكتبه الرئيسية من بينها «مقدمة

للمنطق والمنهج العلمى» Introduction to Logic and Scientific Method (١٩٣٤) وكتابه «العقل المميز (السيد)» Sovereign Reason (١٩٥٤) وكتابه الرائد: «منطق بلا ميتافيزيقيا» Logic Without Metaphysics (١٩٥٧) و«بناء العلم» The Structure of Science (١٩٦١) و «إحياء التيلولوجيا ومقالات أخرى» Teleology Revisited and other Essays (١٩٧٩).

★ ★ ★

وصفه البعض بأنه فورة ذكاء وثورة وروح. أعمل عقله وفكره فى محاولة لفهم نفسه وفهم الآخرين من حوله وفهم الكون بأكمله والقوى التى تسيره فلا يكاد العقل يعرف شيئا من كل هذا بعيدا عن انتفاضة الروح وتوثبها فى تطلعها إلى المجهول.

اسمه بالكامل هيلموت ريتشارد نيبوهر لاهوتى وعالم أخلاق أمريكى كرس حياته لخدمة عقيدته (البروتستانتية) وتوضيح دور المسيحية لرفعة الإنسان وتحرره.

ولد نيبوهر فى ريت سيتى Right City فى الثالث من سبتمبر عام ١٨٩٤ لأسرة ينتمى كثير من أعضائها للكنيسة فهو الأخ الأصغر لرينهولد نيبور Reinhold (١٨٨٢ - ١٩٧١) من كبار اللاهوتيين فى أمريكا. ومنذ أن تخرج قام بالتدريس فى مدرسة ييل المقدس Yale Divinity School من عام ١٩٣١ وحتى وافته منيته عام ١٩٦٢ . وهناك بعض المؤثرات الرئيسية التى تدخلت فى تشكيل عقليته وتحديد اتجاهاته الفكرية إلى حد بعيد وفى مقدمة هذه المؤثرات فلسفة سورين كيركجارد Kierkergaard (١٨١٣ - ١٨٥٥) الذى يعتبر أبا الوجودية وأيضا العالم والمصلح اللاهوتى كارل بارت Barth (١٨٩٦ - ١٩٦٨) وأولهما ساعد عقله على أن يتحرر من جموده وأن يتجرد من أسطورة الثابت وخداع المثل الأفلاطونية وغيره مما أصبح ركائز أساسية فى فكرته عن الزمان وعن الذات وعن المسئولية بينما فتح له الثانى (بارت) باب العقيدة والإيمان المسيحى وما ينطويان عليه من مثل وأخلاقيات.

الموضوع الرئيسى الذى انشغل به نيبوهر على الرغم من مهام مناصبه العديدة التى تبوأها كان البحث فى علاقة الإيمان المسيحى بالحضارة وهو ما استدعى بالضرورة معالجة فكرة الزمان التى انتهى فيها إلى الأخذ بالزمان الوجودى أو زمان الكينونة الفردية لا الزمان المتعلق بوجود العالم (كما عند كانط). وإن كانت قد ظهرت لديه مشكلة الصلة أو العلاقة بين الفردية التى ينبنى عليها الإيمان باعتبار أن الشعور الدينى هو شعور ذاتى بحت قبل أن يكون شعورا جماعيا (كما ذهب دوركايم مثلا) وبين ما قد تنطوى عليه الحضارة من بعض صفات الاستقرار أو الديمومة والثبات.

المخرج الذى اقتنع بسلامته لتفادى ما قد يكون فى القضية من تناقض كان يتمثل فى مقولة النسبية التاريخية والثقافية على اعتبار أنها مما يؤثر فى إيمان الأفراد وفى تفكيرهم الأخلاقى وفى مواقفهم العقدية بشكل ملحوظ. وعلى اعتبار أن ما يهم بالنسبة إليه هو وجود الإنسان ولأن الإنسان متناه فى الزمان والمكان فما يعنى إذن وجود الذات وما تعيشه من آنيات ولحظات ومواقف واختيارات. الأمر الذى يضع الإنسان (الذات) فى مواجهة مع مسئوليته ومصيره.

ولقد كتب نيبوهر العديد من المؤلفات والمقالات التى تناول فيها الكثير من قضايا الدين والإلزام الأخلاقى وفى مقدمتها كتابه المعنون «المنابع الاجتماعية للطائفية» The Social Sources of Denominationalism (١٩٢٩) ثم كتابه «مملكة الله فى أمريكا» The Kingdom of God in America (١٩٣٧) و«معنى الكشف» The Meaning of Revelation (١٩٤١) و«المسيح والثقافة» Christ and Culture (١٩٥١) و«التوحيد الراديكالى والثقافة الغربية» Radical Monotheism and Western Culture (١٩٦٠) ثم آخر كتبه التى نشرت بعد وفاته بعام بعنوان «الذات المسئولة» The Responsible Self (١٩٦٣).

★ ★ ★

نيسبت، روبرت أ (١٩١٣ -) NISBET, Robert A.

روبرت الكسندر نيسبت منظر اجتماعى وسياسى أمريكى ولد فى لوس انجليس عام ١٩١٣ واشتهر أثناء عمله كأستاذ لعلم الاجتماع بجامعة كاليفورنيا بتحليله الوظيفى للسلوك الاجتماعى وبمشاركته العميقة فى الجهود المبذولة والتى انتشرت منذ خمسينيات القرن الماضى وأخذت على عاتقها عبء تصنيف النظريات السوسيولوجية فى ضوء توجهها الأيديولوجى الذى ارتبطت به والذى اتخذته كنقطة انطلاق أو بداية لها.

وتعتبر معالجة روبرت نيسبت لنظرية علم الاجتماع فى علاقتها بالتراث الأخلاقى فى مقدمة هذه التصفيات التى قدر لها الذيوع والانتشار حتى أصبحت من بين التقاليد الراسخة للعلم ويأخذ بها جمهور العلماء والباحثين حيث أبرز بعض المفاهيم الأساسية وشرع فى شرحها وتحليلها تحليلا وظيفيا متعمقا يكشف عن ماهيتها وطبيعة الارتباطات والانعكاسات فيما بينها وتأثيرات ذلك بالتالى على الفرد والمجتمع على السواء وفى مقدمة هذه المفاهيم المجتمع المحلى والسلطة والمكانة والمقدس والاغتراب.

وتكشف عناوين الكتب والمؤلفات التى أصدرها نيسبت عن نوعية الاهتمامات التى شغلته فقد ظهر له فى عام ١٩٥٦ كتاب (بالاشتراك مع روبرت ميرتون) بعنوان «المشكلات الاجتماعية المعاصرة» Contemporary Social Problems حيث حللا معا «اللاوظيفية الاجتماعية» Social Disfunction وما ارتبط به بهذا المفهوم من ممارسات وظواهر مثل السحر Magic وهو كتاب اعتمد كثيرا فى تحليله على المادة والتصورات السيكولوجية بالرغم من أنهما لم يتطرقا إلى انعكاسات المفهوم على التماسك الاجتماعى بشكل مجرد.

وربما كان فى مقدمة كتاباته «التقليد الاجتماعى» The Sociological Tradition (١٩٧٠) الذى تناول بالعرض والتحليل رؤى ومواقف عدد من كبار الفلاسفة والاجتماعيين من أمثال توكوفيل de Toqueville وروسو Rousseau ودور كايم Durkheim وفيبر Wcber وكونت Comte وجورج زيميل Simmel وأوستن

Austin وهيجيل Hegel وغيرهم اضافة إلى تحليله بعض المفاهيم الأساسية فى العلم. هذا علاوة على عدد آخر من المؤلفات من بينها «المجتمع المحلى والقوة» Community and Power وآخر بعنوان «علم الاجتماع عند اميل دور كايم» The Sociology of Emile Durkheim (١٩٧٤) إضافة إلى كتابين آخرين رائدين أحدهما بعنوان «التقليد والثورة» Tradition and Revolt والآخر بعنوان «علم الاجتماع باعتباره شكلا فنيا» Sociology as an Art Form (١٩٧٦).

★ ★ ★

فهرست الأعلام

الصفحة	الأعـــلام		م
٦٦	HOMANS, G. Casper	هومانز، ج. كاسبر	٢٤
٦٨	HOOK, Sidney	هوك، سيدنى	٢٥
٧٠	HORKHEIMER, Max	هوركيمر، ماتس	٢٦
٧٣	HOROWITZ, Irving Louis	هوروفيتز، ايرفنج لويس	٢٧
٧٦	HOWELLS, William	هاولز، ويليام	٢٨
٧٨	HROZNY, Bedrich	هروزنى، بدريش	
٨١	HUNTINGTON, Ellsworth	هنتنجتون، الثوورث	٢٩
	- J -		
٨٣	JAKOBSON, ROMAN	ياكوبسون، رومان	٣٠
	- K -		
٨٥	KIDDER, ALFRED	كيدر، الفريد، ف.	٣١
٨٧	KROEBER, A. Louis	كروبير، أ . لويس	٣٢
٨٩	KUHN, Thomas Samuel	كون، توماس صامويل	٣٣
	- L -		
٩١	LACAN, JACQUES	لاكان، جاك	٣٤
٩٦	LASWELL. H. Dwight	لازويل، هـ. دوايت	٣٥
٩٨	LAZARSFELD, Paul	لازرسفيلد، بول	٣٦
١٠٠	LEACH, Edmond, Ronald	ليتش، ادموند رونالد	٣٧
١٠٢	LEVI-STRAUSS, Claude	ليفى ستروس، كلود	٣٨
١٠٧	LEWIS, Clarence, Irving	لويس، كلارنس، ايرفنج	٣٩
١٠٩	LINTON, Ralf	لينتون، رالف	٤٠
١١١	LIPSET, S. Martin	ليبست، س. مارتن	٤١
١١٣	LOOMIS, Charles	لوميز، تشارلس	٤٢
١١٥	LOWIE, Robert Harry	لوى، روبرت هارى	٤٣
١١٨	LUKACS, Gyorgy	لوكاتش، جيورج	٤٤

تم بحمد الله

طبع بدار هريدي للطباعة
٣ شارع قرشار الأزهر علي القاهرة
ص.ب (٥٨) الدراسات ت: ٢٩١٢٠٧١

هذا الكتـــاب

يدور حول الفكر الاجتماعي والأنثربولوجي الغربي ومفكري هذين العلمين بالذات وعلى وجه التحديد.

وهو الجزء الثاني من (أعلام الفكر الاجتماعي والأنثربولوجي الغربي المعاصر) الذي نحاول فيه الاقتراب ممن نعتقد أنه من الضروري على الباحثين في علم الاجتماع وفي الأنثربولوجيا أن يتعرفوا على ما يشتمل عليه من أعلام كان - ولا يزال - لهم دورهم المؤثر في مسيرة وتطور هذين النسقين العلميين، وبذلك يتكامل هذا الجزء مع ما سبق أن عرضنا له في الجزء الأول.

وهو محاولة لمناقشة ما نعتقد أنه أهم ما انطوت عليه كتاباتهم من مبادئ وأفكار ونظريات.

